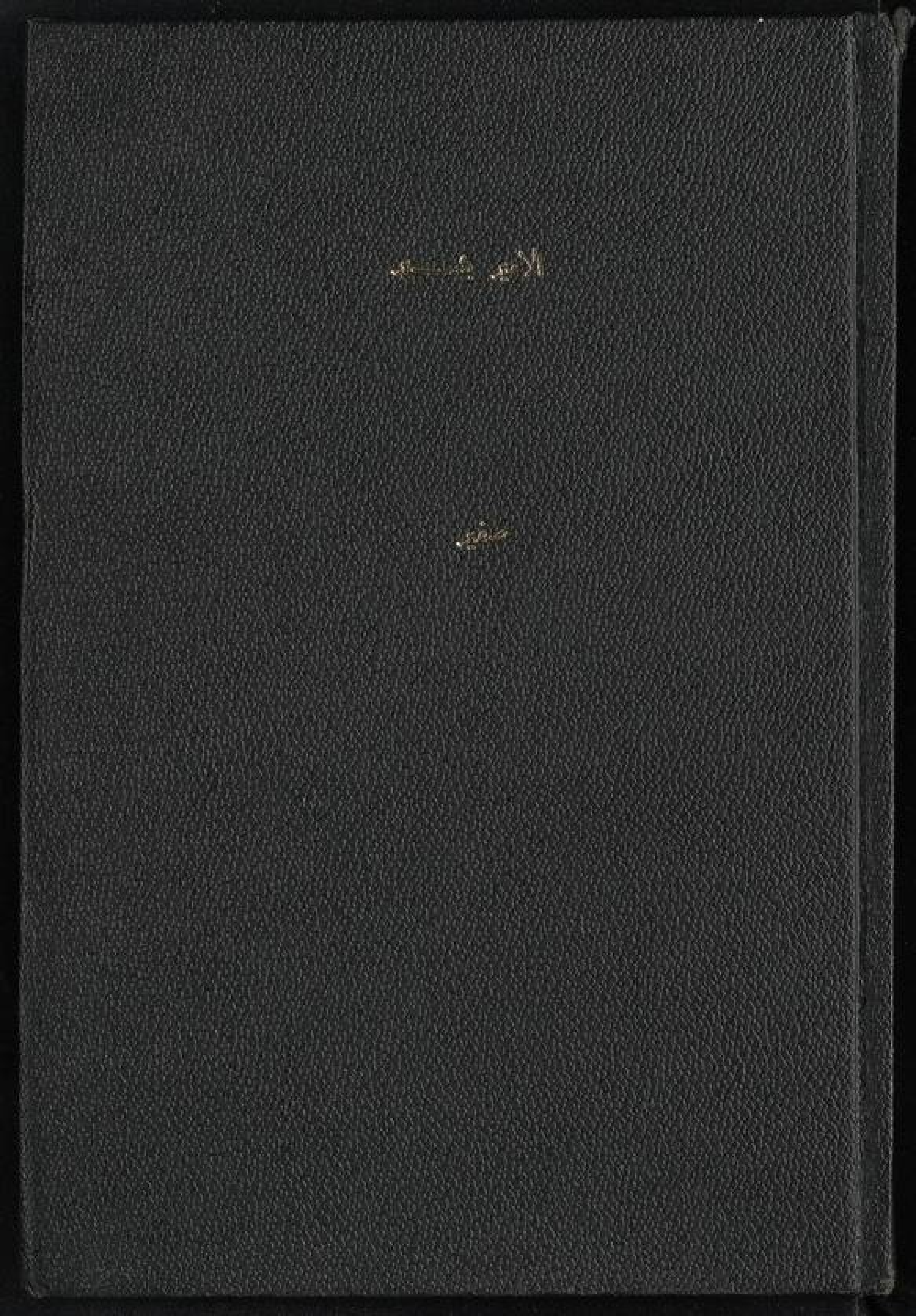
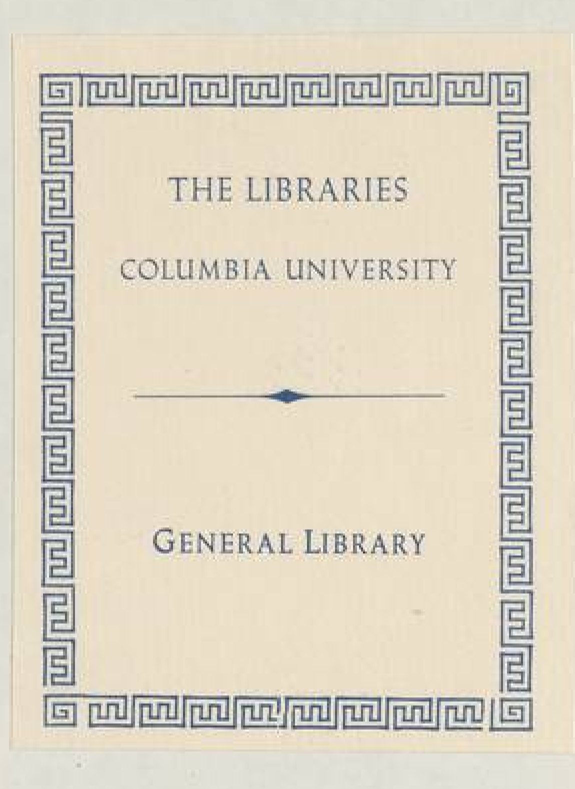
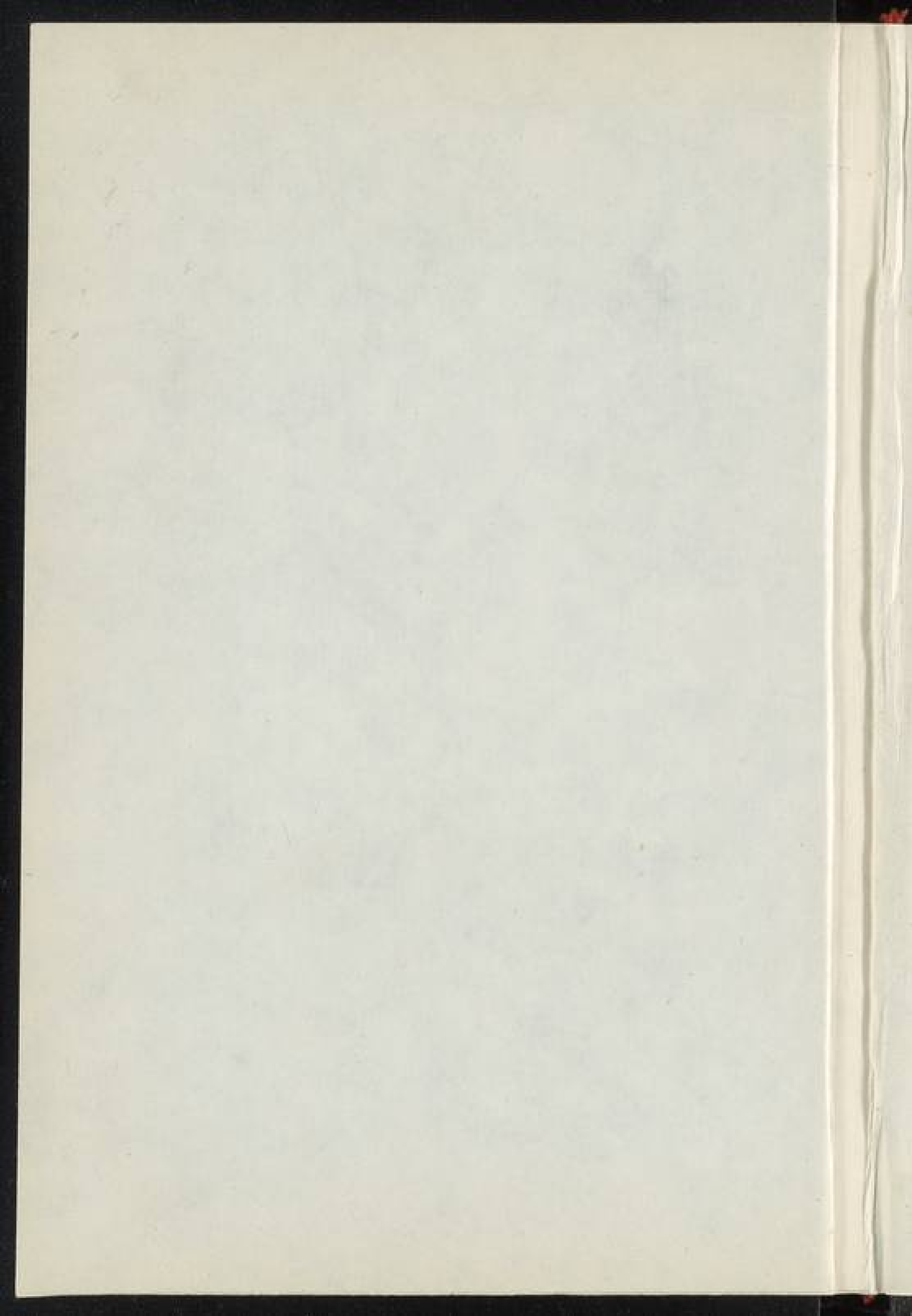
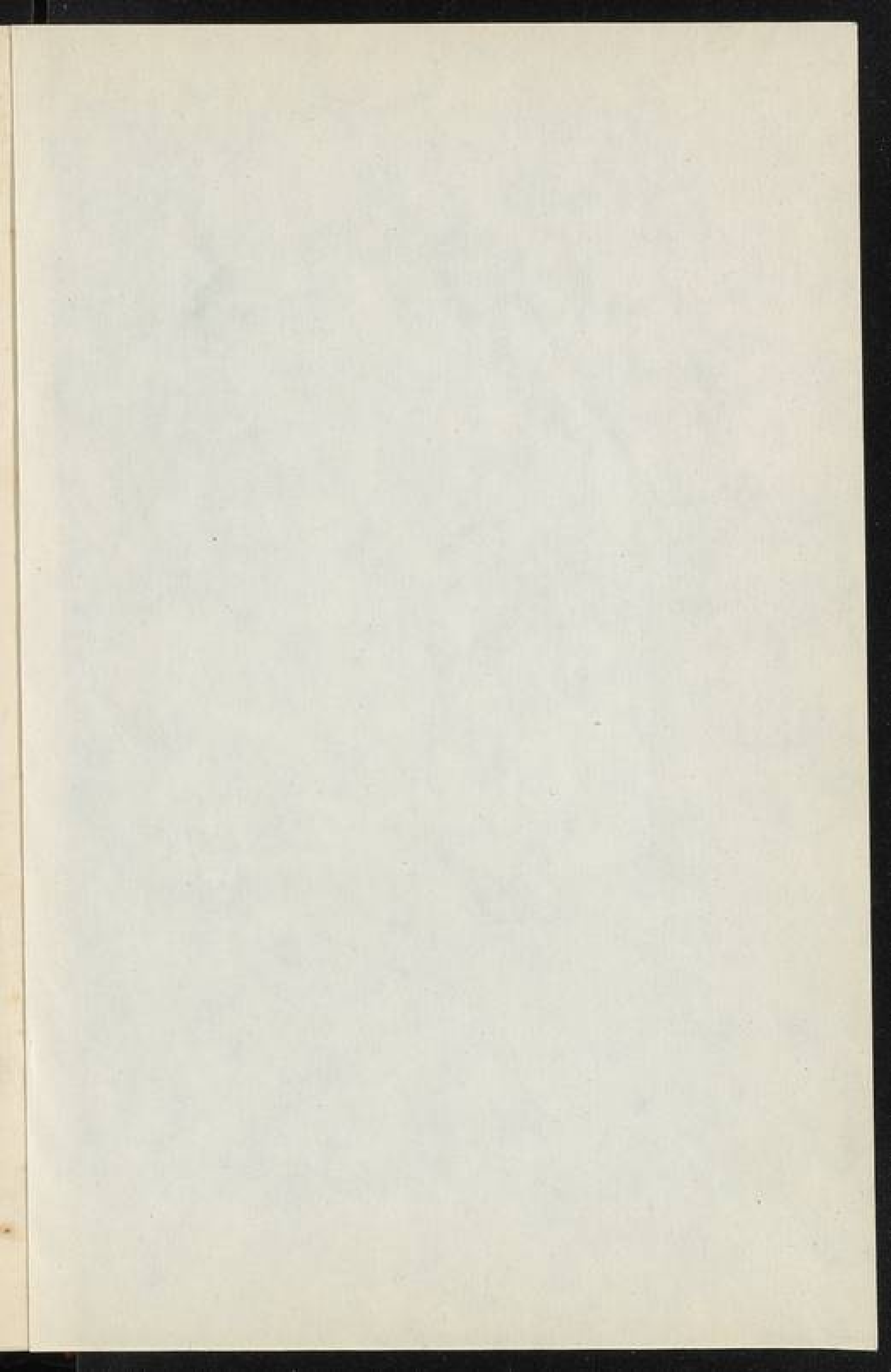



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY





الذكرى المئوية الاولى لوفاة الامير بشير الشهابي (١٨٥٠ – ١٩٥٠)

الأمير بشير الشهابي

طرائف عن حياته واحكامه واخلاقه

تأليف

الخوري بطرس ف. صفير

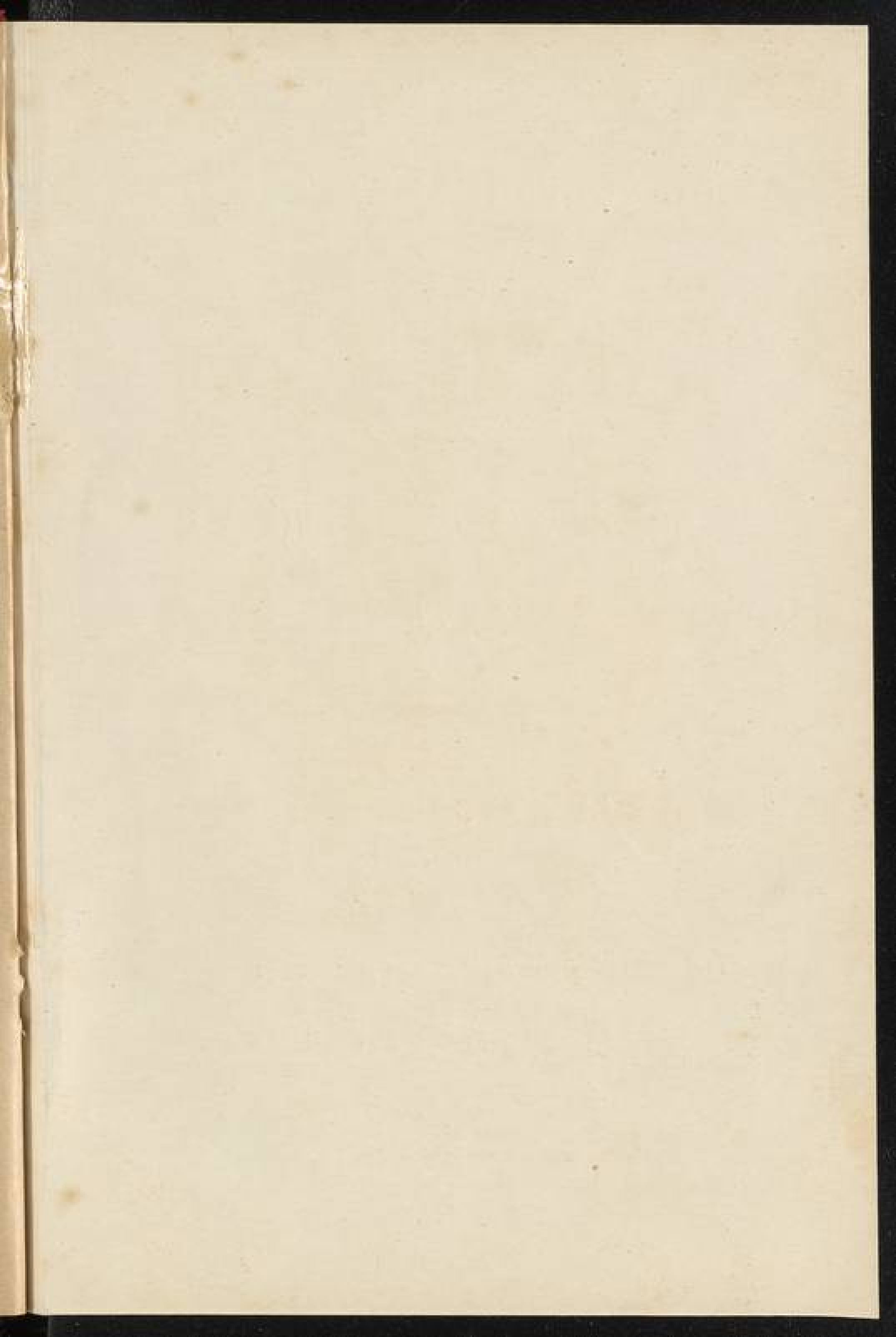
نزيل بفلو نيويورك

واحد اساتذة كلية القديس يوسف سابقا

مع

تصدير بقلم الاستاذ فؤاد ا. البستاني

وتوطئة بقلم الاميرة نجلا الى اللمع



عني بطبعه على نفقة المؤلف
الخوري لويس كرم

Imprimé par les soins du
R. P. Louis KARAM

يطلب هذا الكتاب من حضرة الخوري لويس كرم مرشد اخوة المدارس المسيحية في رأس بيروت ، شارع جورج بيكو ، ومن مكتبة يوسف صفير ٣٧ شارع غورو ، بيروت ، وفي المهاجر من مكتبة توفيق حبيب على العنوان التالي :

TOFIK HABIB, 187 Atlantic Ave.
Brooklyn 2, N. Y. U. S. A.

ومن المؤلف على عنوانه هذا :

Rev. PETER F. SEFEIR
41 Cedar St.
Buffalo 4 N. Y. U. S. A.

الذكرى المئوية الاولى لوفاة الامير بشير الشهابي (١٨٥٠ – ١٩٥٠)

الأمير بشير الشهابي

طرائف عن حياته واحكامه واخلاقه

تأليف

الخوري بطرس ف. صفير
نزيل بفلو نيويورك
واحد اساتذة كلية القديس يوسف سابقاً

مع

تصدير بقلم الاستاذ فؤاد ا. البستاني
وتوطئة بقلم الاميرة نجلا ابي اللمع

دار الطباعة والنشر اللبنانية
الصيفي – بيروت

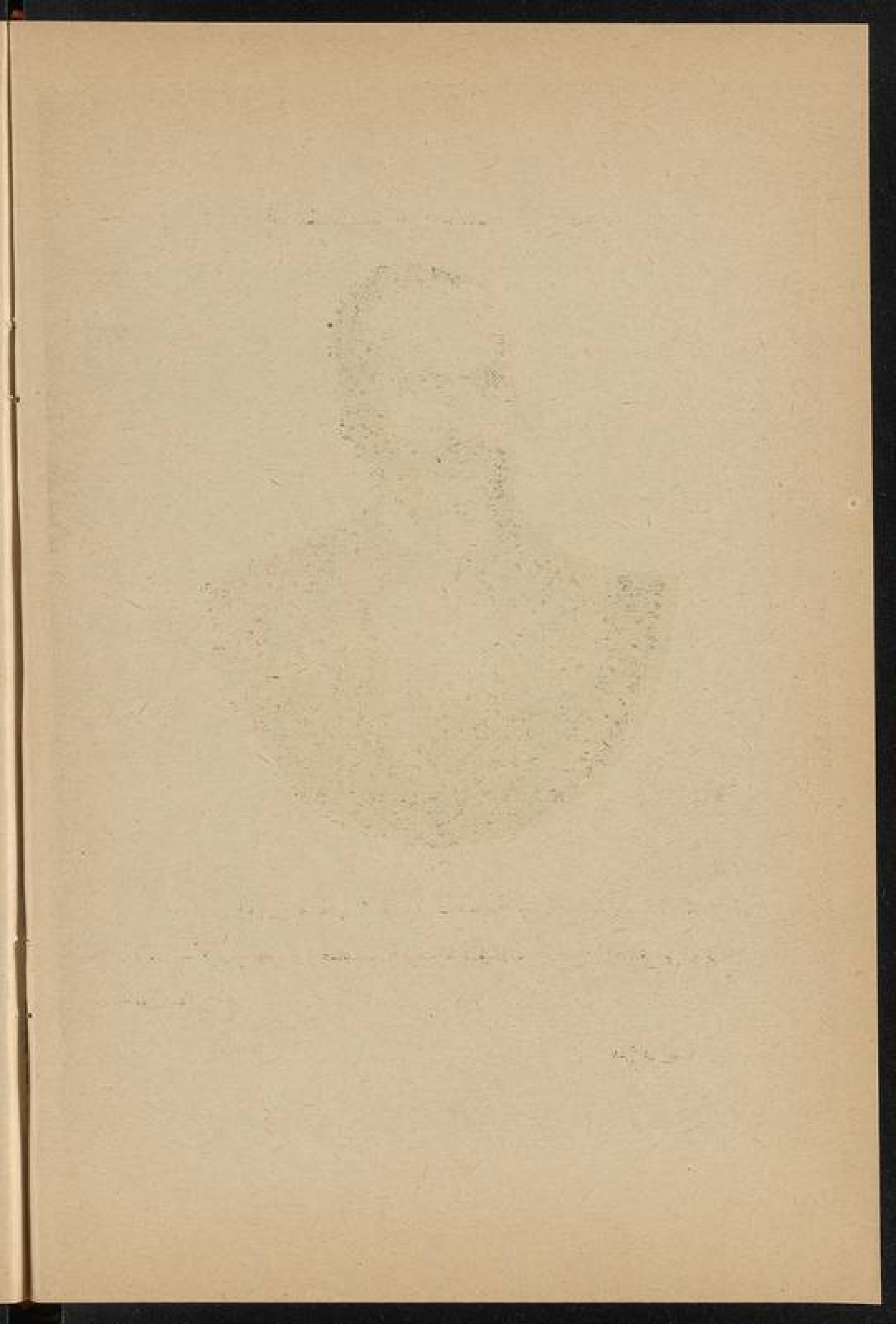
نشرت بعض فصول من هذا الكتاب في جريدة
« الهدى » النيويوركية الغراء

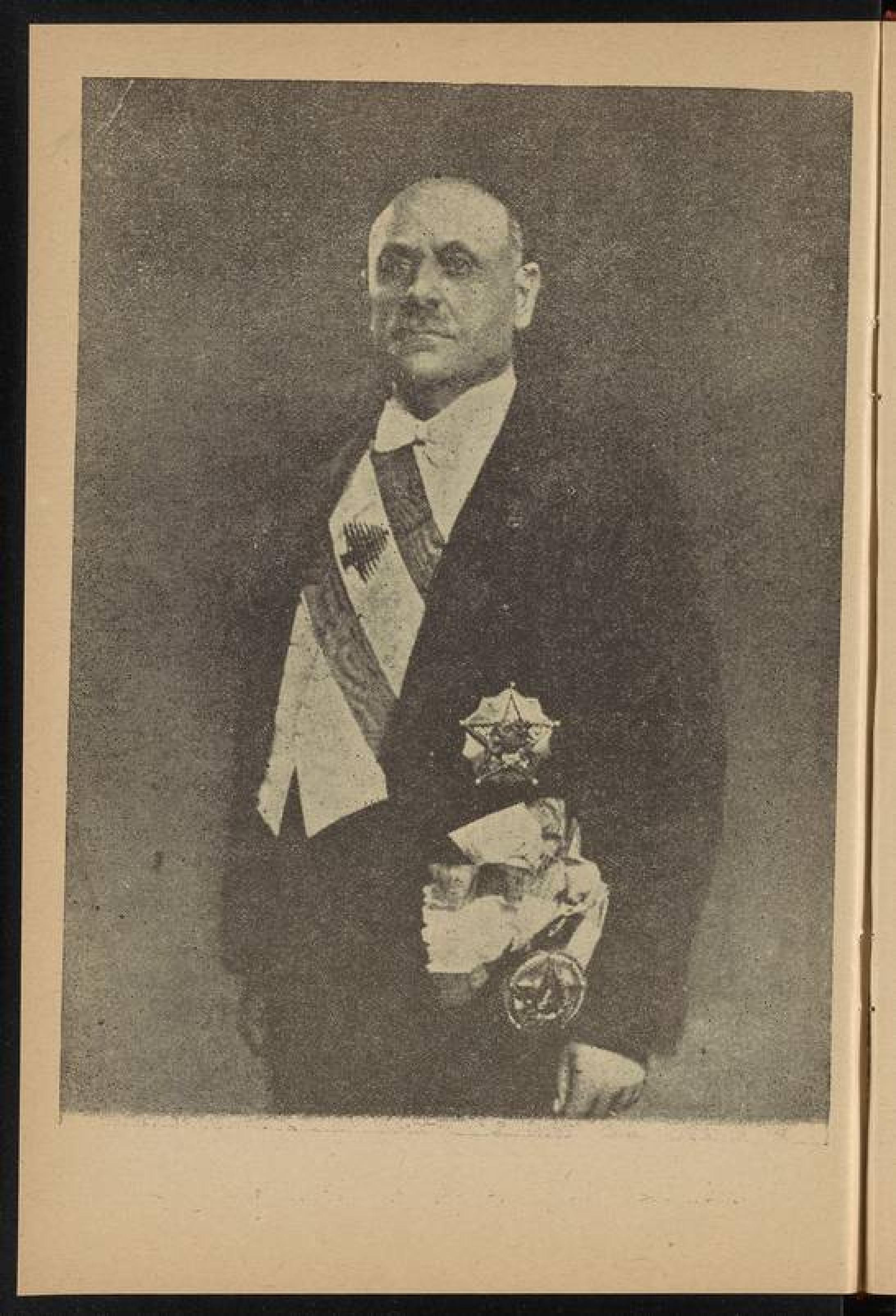
والد المؤلف المرحوم منصور فرج صفير

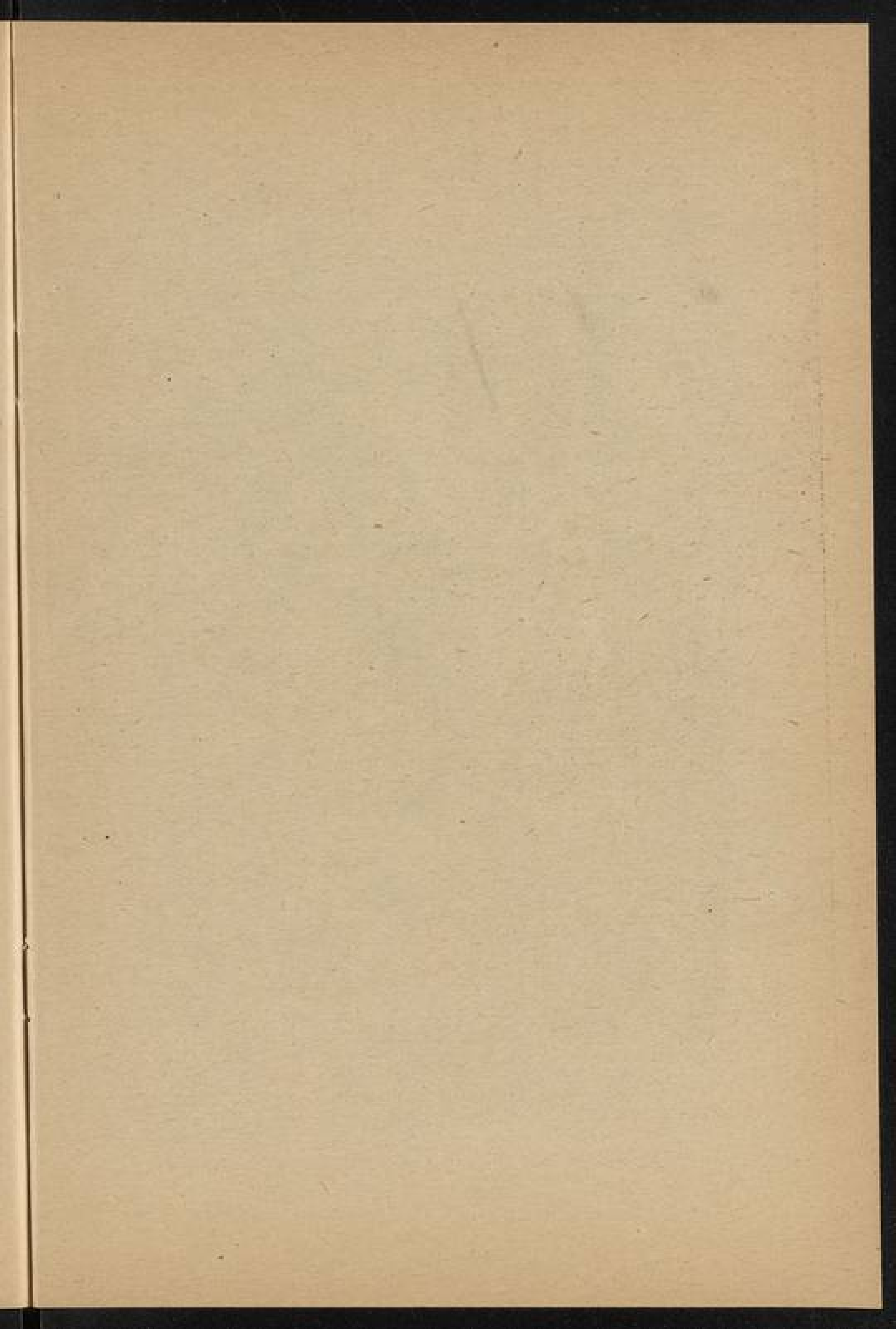


الى والدي منصور اللبناني الصميم الذي حبب الي منذ حداثتي اخبار الامير بشير وشخصيته الفريدة فكان له من ثم الفضل في وضع هذا التاريخ .

المؤلف



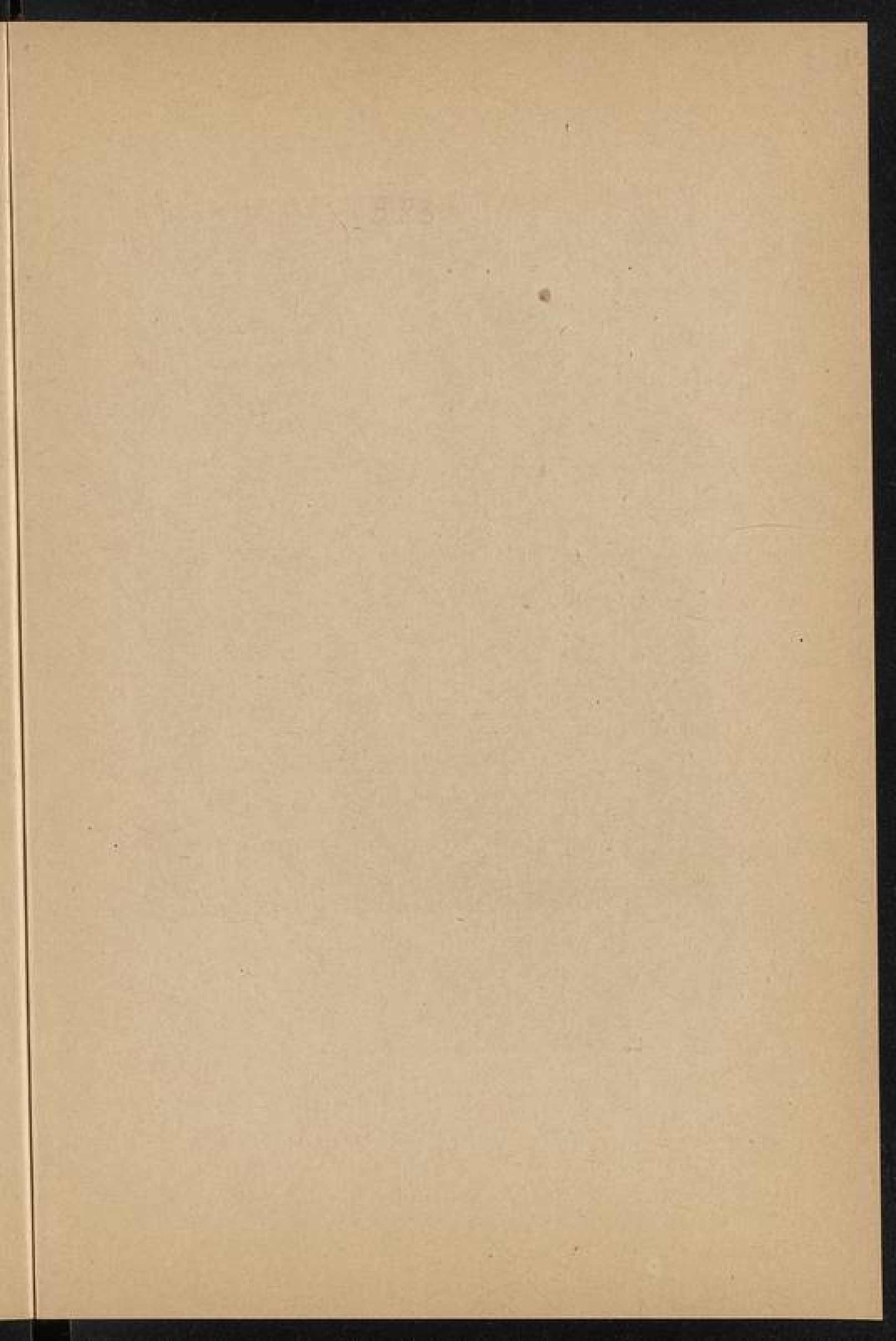


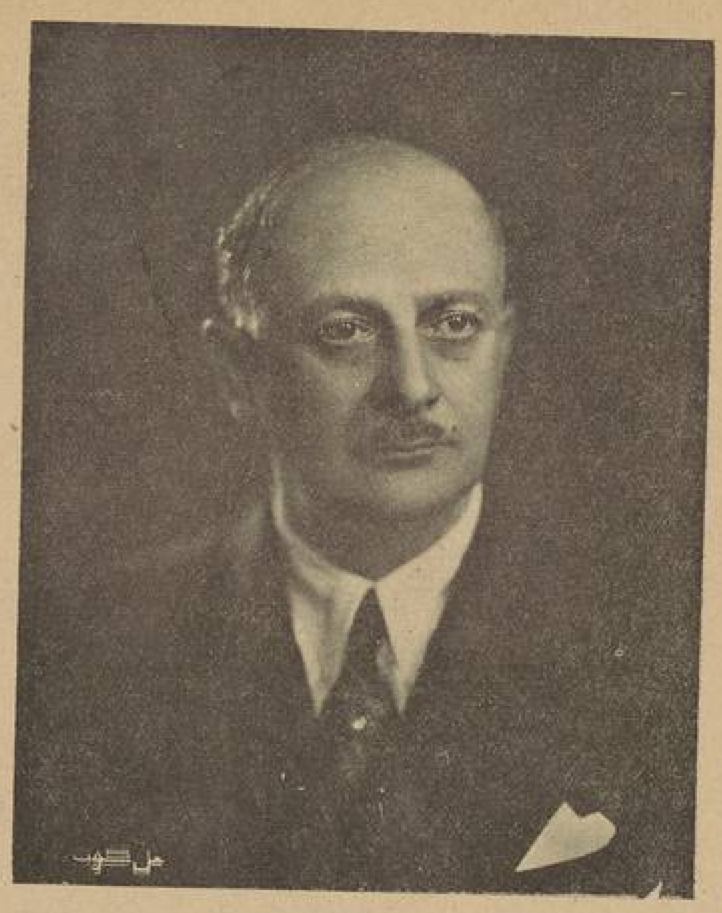


المرحوم حبيب باشا السعد



رئيس مجلس ادارة لبنان على عهد المتصرفية واحد رؤساء الجمهورية اللبنانية بعد الحرب العالمية الاولى وهو حفيد الشيخ سعد الخوري الذي مهد للامير بشير سبيل التقدم والحكم (انظر الصفحة ٢٨ من الكتاب).

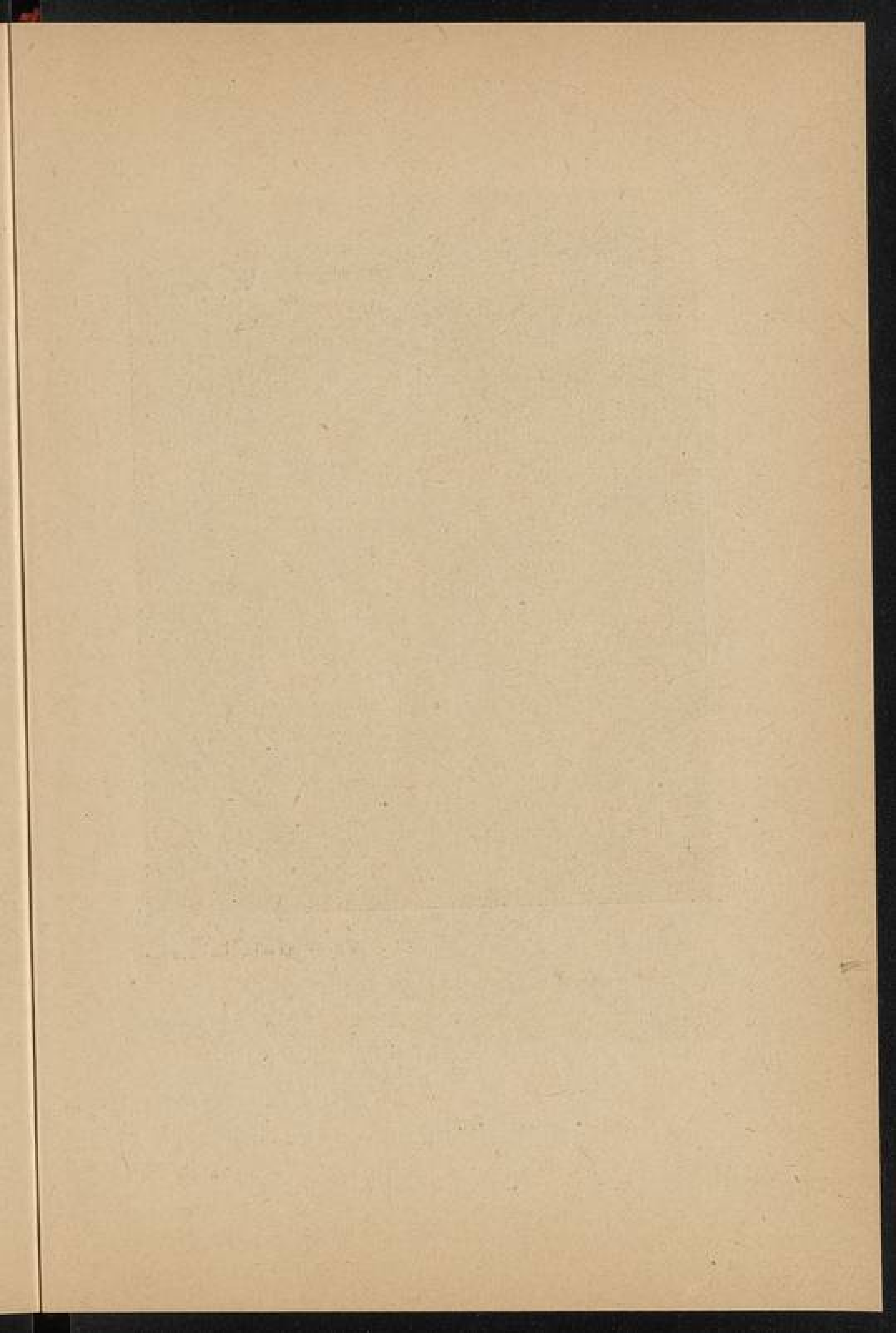




صاحب المعالي الدكتور الامير رئيف ابي اللمع وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة في الجمهورية اللبنانية الذي شجع المؤلف على نشر هـذا الكتاب واوعز بوضعه بين ايدي الاساتذة والطلبة في المدارس اللبنانية .

« التاريخ ليس درس الماضي فحسب بل المستقبل ايضا. فهو الذي يسدد خطواتنا المقبلة على ضوء اخطائنا الماضية . فالامة التي تجهل تاريخها تسير في الظلام وتعثر في المسير » .

رئيف ابي اللمع





رسم اركان الاسرة الشهابية في لبنان ، وهي سليلة مجد
الامير بشير الشهابي الكبير

تصدير

تمرّ السنة ١٩٥٠ حاملة الذكرى المئوية لوفاة الامير الكبير ، فتعيد على اللبنانيين حقبة من تاريخهم المستطيل يكتنفها السؤدد وتعبق بها الكرامة الوطنية . ويأتينا من نيويورك هذا المؤلف اللطيف ، فتبرز امامنا الشخصية المهيبة التي عمرت تلك الحقبة فأهلتها بالمآثر ونشرت على احداثها ملاء المجد .



فؤاد افرام البستاني

هو كتاب حضرة الخوري بطرس فرج صفير اللبناني الذي عرف، ناشئاً ، بعض من ادركوا اواخر حكم المير ، فسمعوا الكثير عنه ، ورووا عن آبائهم نوادر احكامه الرامية ابداً الى اقرار العدل والمساواة وتوفير الامن والرفاهية . فعلقت بذهنه خطوط هذه الشخصية الحبيبة المحترمة ، حتى اذا ترامت به الاسفار الى اميركة الشمالية ، بعد ان اتم دروسه في جامعة القديس يوسف ببيروت ، ودرس فيها مدة ، فاستقر في بفلو نيويورك قائماً بخدمة مهاجرينا الروحية منذ زهاء ربع قرن ، عاودته ذكرى الامير في سنة اليوبيل

هذه ، وشاء ان يقر في اذهان اللبنانيين جميعاً ما وقر في ذهنه من تاريخ الهيبة والكرامة . فكان هذا الكتاب الجامع ، على لطف حجمه وسهولة مأخذه ، ورائق اسلوبه . يطالعه اللبناني فيتسع أفقه ، ويكبر قلبه ، وتتمكن ثقته برسالة وطنه . فيشكر للمؤلف الفاضل جهده ، ويقدر له هذه الخدمة الوطنية الى خدمته الروحية وكلتاهما صنوان في رعاية هذا الوطن الحبيب .

فؤاد افرام البستاني



توطئة

تاريخ الامير بشير الشهابي الكبير

صاحبة هذا المقال هي الاميرة نجلا شديد ابي اللمع قرينة الاستاذ يوسف نعمان المعلوف في بروكلن - نيويورك وشقيقة معالي الدكتور الامير رئيف شديد ابي اللمع وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة في لبنان .

والاميرة نجلا هي صاحبة مجلة « الفجر » وحاملة لواء الخطابة والادب النسائي في المهجر .



نجلا ابي اللمع معلوف

يحملني على نشر هذا المقال اليوم ، في الكتاب الذي باشر طبعه حضرة العـالم المفضال الخوري بطرس فرج صفير المقيم في الولايات المتحدة ، عاملان .

عامل التقدير لنزعته القومية السامية .

وعامل الاعجاب به ، بعد ان طالعت في جريدة « الهدى » الغراء بعض المقاطع المأخوذة من ذاك الكتاب ، كأنها اسطورة تاريخية ، فيها من معالم الامجاد وروائع الاثار ، ما يعد بحق تراثا وطنياً يفاخر الامم ويعايش الزمن ، ويسجل في تاريخ لبنان صفحة لامعة من صفحات الوطنية والمجد .

ذهب الناس في عقائدهم مذاهب شتى عن الامير الشهابي الكبير الذي يعد من اعظم رجالات لبنان في تاريخه الطويل القديم منه والحديث . وكتب المؤرخون فصولا كثيرة عن حياته ، نشرت متفرقة ، وفي فترات بعيدة من الزمن ، فلم تجمع في كتاب خاص يتيسر استقراؤه وتسهل دراسة ما فيه من النتائج والعبر .

والامم مهما تطورت مدنيتها ، وتبدلت نظم الاجتماع فيها ، تظل مدينة بالشيء الكثير للاسلاف الذين خدموا قضيتها وجاهدوا في سبيلها . لذلك كان من ابرز النقائص الادبية التي استحكمت بكتاب اللغة العربية عهداً طويلا ، اهمالهم تدوين تواريخ اعاظم رجال الشرق عامة ، ولبنان خاصة ، وانصرافهم الى جمع تواريخ اعاظم رجال الغرب وادخالها الى المدارس والمكاتب والمجتمعات . فشب النشء الجديد وفي روحه نزعة الى اقتباس كل ما هو غربي .

وتحولت مناهجه واطواره وحكوماته الى اتجاهات ، غريبة عن تقاليده ، بعيدة عن امانيه وعاداته ، وتوارثها الاحفاد عن الاجداد ،

فاضعفت فيهم المثالية الوطنية والنفسية القومية ، فساروا في طريق غيرهم ، لا في طريقهم ، واستهدفوا هدف غيرهم لا هدفهم ، وضاعوا بين الاثنين .

ان الاصلاح في كل امر يقوم على الرجوع الى الحقيقة المجردة عن كل ما يغشاها من الاصباغ . وكل امة تتغلب عليها الاوهام ، وتنصرف الى الاهتمام بالمادة والمظهر ، دون الروح والحقيقة ، وتتخلى عن تراثها القومي المنبثق عن جوهر عنصرها وعقلية فصيلتها ، هي امة تسير الى التقهقر فالاندثار .

وان للانسان ارثاً قومياً طبيعياً يعمل باستمرار على حفظ سلامته ، ويوجه سبل نشؤه وارتقائه ، فاذا ما ضاع ذاك الارث ـ المرشد الحصين الواقي ـ ضل الانسان الطريق وسار ، لا على سنن فلسفة الطبيعة ، بل على مهب رياح الاقدار .

لذلك وجب على المصلحين الوطنيين ان يعنوا بدرس تاريخ قومهم ، وتاريخ محيطهم ، وتاريخ نوابغهم . ولا يخلو لبنان منهم ، ومن حياة لهم ، فيها المفاخر ، وفيها العظات ، وفيها العبر . اخصه في زمن هو عهد استقلالنا الكامل ، وبدء نهضتنا العلمية الحديثة .

ان للحقائق والامثلة الواقعية التي تتناقلها الاجيال عن اعاظم الرجال في لبنان ، سواء كانوا حكاماً او سياسيين ، ادباء او شعراء ، صوراً حية صادقة ، يتلمس فيها الخلف عن السلف ، مواضع القوة والضعف ، والهدى والضلال .

والانسان عقل وروح ، كذلك الامم .

فلاحياة لامة لا يسيطر عليها :

العقل - الذي يوجهها الى الحقيقة والعلم المعرفة .

والروح - التي تحملها على حب بيئتها ، والتعلق بتقاليدها ، وحفظ اثار النوابغ من ابنائها .

من اجل هذه الاهداف كلها ، اعتقد ان الجهود التي بذلها حضرة المؤرخ المدقق، الاب بطرس فرح صفير، في نشر تاريخ رجل، هو رجل لبنان الاول ، دون جدال ، هي جهود علمية وطنية مثمرة ،وهي خدمة جلى للنشء اللبناني الجديد ، تظل على مر الاجيال ، موضع التقدير والاجلال .

نجلا ابي اللمع معلوف



امير لبنان


الدكتور حبيب ثابت

قصيدة في الامير بشير للدكتور حبيب ثابت وهو علم من اعلام الطب والعلم والادب وشاعر لبناني كبيرله مؤلفات عديدة في الشعر والنثر منها : الصحة والجمال في الطب ، عشتروت وادونيس ، الزهرة الاولى من ازهار الصبا ، وهذه القصيدة وضعها شاعرنا الكبير يوم نقلت رفات الامير من الاستانة الى لبنان .

•

ملاء الشرق روعة ووقارا   وحمى الملك قاهراً جبارا
ومشت حوله الدروز وكانت   تتفانى في حبه والنصارى
تتهادى السيوف زهواً حواليه   وتمشي الى العدو انتصارا

...

صدره المعقل الحصين وتلقاه   اذا جئت في الحنو مزارا
خلعت لحيتاه في هيبة العمر   عليه فوق الوقار وقارا
انفه الشامخ الاشم وعيناه   شرار اما لمحت الشرارا ؟
وعلى الحاجبين من غضب الحق   انتفاض شد الرماح إطارا
وخطوط الجبين تقرأ فيها   كيف كان الامير او كيف صارا

...

ساس لبنان عادلا مستبداً   لم يجر حكمه بل العدل جارا

انما الحكم قوة تمسك الناس — وتحميهمو وتحمي الذمارا
وضعيف الجناح من خاف يوم — العدل ان يجعل الحديد سوارا
قال للظلم انت ظلم ولم يجزع — مصيراً ولم يدار انكسارا
هادن الدهر ساعة فتعالى — ثم دار الزمان يوماً فدارا
وطوته الايام ظلماً وقدماً — قد طوت قيصراً وكسرى ودارا

...

اسمعتم صوت الامير ينادي — من فم القبر صاخباً هدارا
قد تمنيت ان اعود الى اهلي — وان املأ الزمان افترارا
عل سكناي في الثرى توقظ — النوم يوماً وتلهب الارض نارا

...

يا خيال الامير في القبر زحزح — صخرة القبر وانفض الغبار
واخلع الليل عن منا كبك الشماء — واطلع مع النهار نهارا
وانزل الدار بالعرين وارجع — لرجال البلاد مجداً توارى
فترى القصر في «بتدين» يزهو — وترى الماء دافقاً مدرارا
وترى الناس خشعاً من حواليك — تلبي الضيـاغم الاحرارا
يسفكون الدماء وهي غوال — ان اراد الامير او ان اشارا
وترى الشعب سيداً مستقلا — يتلقى من الامير الامارا

...

« قاعة » المجد لا تذلي لضيم — فلكم هدت العروش كبارا
كان بقياك رغم انف الليالي — فاملئي من بهائك الابصارا
واسلمي شاهداً يقص ويروي — عن بشير ما يدهش الادهارا

الدكتور حبيب ثابت



رسم قصر بيت الدين بريشة الفنان اللبناني المشهور الاستاذ صليبا الدويهي



رسم سيف الامير
بشير وهو السيف
التاريخي الذي اهداه
القائد بونابرت الى
امير لبنان ويرجع
تاريخ هذا السيف الى
ايفان الهائل امبراطور
روسيا .

المقدمة

في مجلس الصدر الاعظم

« والله لا اعلم ما الذي اوقفني رغم ارادتي حالما شاهدت وجه هذا الرجل . ولم اكن اظن ان على وجه الارض رجلا بهذه الهيبة » .

هو الجواب التاريخي الذي نطق به منذ نحو مائة سنة رؤوف باشا الصدر الاعظم وهو رئيس وزراء الدولة العثمانية في الاستانة ، اي اسطمبول ، وقد وجهه الى من حوله من ارباب مجلسه العالي الذين دعاهم لمشاهدة حاكم شهير لاحدى المقاطعات التابعة للدولة العثمانية غُلب على امره فاضطر ان يعتزل الولاية وارغم على ان يغادر بلاده بعد ان حكمها السنين الطوال وان ينهي حياته منفياً في المكان الذي يختاره . فسافر الى الاستانة واحب الاقامة فيها . فاستدعاه الصدر الاعظم المذكور ورفعت باشا مشير الخارجية الى الباب العالي لمقابلتهما . وسبق الصدر وامر ارباب مجلسه انهم متى دخل هذا الزائر لا يقفون له تحقيراً لان الصدر الاعظم كان ينفر من الحاكم لاتحاده مع اعداء الدولة . فاجاب اعضاء المجلس سمعاً وطاعة . واستعد الحاكم للمقابلة

ودخل القاعة الكبرى . وكان وقوراً مهيباً ذا منظر جليل يستدعي الاحترام من كل ناظر اليه وقد زاده هيبة الشيب واتساع لحيته واسترسال شعرها على صدره . فلما رآه الصدر الاعظم داخلا بهذا المنظر المهيب تهيّب واذا به ينهض اجلالا له ويقف اولا فوقف سائر الجلاّس . فاكرم الصدر وفادته وحيّاه بالسلام واجلسه مجلس العظماء . فتهيبه الجميع متعجبين مما كان . وبعد ان قضى الحاكم مدة يتحدث معهم في شؤون مختلفة استأذن وانصرف لمقابلة مشير الخارجية فقال بعض كبراء الديوان للصدر الاعظم سائلا : « لماذا نهضتم لهذا الرجل بعد ان امرتم بعدم القيام ؟ » فوجه الصدر الاعظم اليهم الجواب الذي صدرنا به هذا المقال .

ان ذاك الحاكم كان منفياً مجرداً من كل سلطة مغضوباً عليه مع بلاده من الدولة فضلا عن ان الصدر الاعظم لم يكن ليقف لأحد من غير الوزراء ولا سيما اذا كان الوافد مسيحياً . فتأمل بمقدار هيبة ذاك الحاكم وقد كان مسيحياً . فلا شك في ان قد حضر على لسان القارىء اسمه وهو الامير بشير شهاب الشهير المعروف بالمالطي الذي حكم لبنان اثنتين وخمسين سنة وهو يعرف بالقاب مجيدة غير ما ذكر وستراها في بدء الفصل الاول من هذا الكتاب الذي يلذ لنا نشره لمناسبة مرور قرن على وفاة الامير ، ونحن لا ندون فيه الا ما هو مقتبس من المصادر الثابتة .

...

قالوا ان ذكر العظماء في كل امة دين على الشعوب وغذاء لحياتها وفضائلها . فكيف بذكر الامير بشير وهو من اعظم رجال لبنان بل اعظمهم قاطبة . لذلك يلذ لنا التحدث عنه مع ابناء لبنان وغيرهم من ابناء الشرق لانه مفخرة للشرقيين عامة . أمير يعتبره التاريخ مثال الحاكم العادل درة الاسرة الشهابية وفخر الطائفة المارونية من كسا لبنان خير وشاح من المجد فيه يعتز الوطن وهو اعظم ابنائه .

اهم مصادر هذا الكتاب :

« اخبار الاعيان في جبل لبنان » لطنوس الشدياق .

« الغرر الحسان » للامير حيدر شهاب . طبعة بيروت ١٩٣٣ وخاصة كتاب الكولونيل شرشل المعنون « جبل لبنان » طبع في لندن ١٨٥٣ وما اخذناه عن كتاب شرشل لم ينشر بعد بالعربية على ما نعلم .

فنبدأ وبالله المستعان .



الجزء الاول

حياة الامير بشير

قبل استلامه الحكم (١٧٦٧ ـ ١٧٨٨)

القاب الامير بشير ـ مولده ـ الامراء الشهابيون ـ مذهبه الديني ـ تربيته ووصيه ـ كمكة الامير ـ الامير بشير في العاصمة ـ زواج الامير بشير .

١ — القاب الأمير

حكم الامير لبنان نحو نصف قرن بحكمة وحزم فائقين حتى خصه التاريخ بالميزة السامية التي خص بها بعض الملوك العظام لانه من اكفائهم اي لقب « الكبير » اسوة بقسطنطين الكبير اول امبراطور روماني مسيحي ، وشرلمان او شارل الكبير امبراطور المغرب ، والفرد الكبير مؤسس دولة الانكليز ، والبابا غريغوريوس الكبير المصلح العظيم ، والقيصر بطرس الكبير مؤسس دولة روسيا الحديثة .

وكثيراً ما اكتفوا بقولهم « الامير » فيفهم السامع والقارىء

من يعنون على حد ما قال الشيخ ناصيف اليازجي في قصيدة عامرة :

« اذا قلت الامير ولم تسمّ فلا يحتاج سامعك السؤالا »

واما لقب المالطي فهو نسبة الى جزيرة مالطة التي اختارها الامير اولا محلا لاقامته بعد اعتزاله الحكم سنة ١٨٤٠

ويسمى احياناً الامير بشير الثاني اذ قد سبقه بهذا الاسم نسيبه الامير بشير الاول (سنة ١٦٩٧ الى سنة ١٧٠٦) وهو اول من حكم لبنان من الاسرة الشهابية بعد انقراض المعنيين . وقد خلف الامير بشير المالطي نسيبه الامير بشير الثالث المعروف « بابي طحين » لكثرة توزيعه الطحين على المحتاجين ولم يحكم الا زهاء سنتين فقط (١٨٤٠ _ ١٧٤٢) وقد انتهت فيه حكومة الشهابيين في لبنان بعد ان استقرت زهاء مائة واربعين سنة ، ومن هنا القول المأثور : « اولها بشير وآخرها بشير » . ومن القاب الامير بشير المالطي « ابو سعدى » نسبة الى اسم كبرى ابنتيه المدعوة سعدى .

٢ — مولد الامير ونسبه

غزير البلدة اللبنانية الجميلة تقع في وسط مقاطعة كسروان مشرفة على البحر المتوسط تزهو منازلها البيضاء بين الاشجار والجنائن . واذا اقتربت من هذه المنازل تبدو لعينك مظاهر القدم على بعضها . ولا غرو فقد كانت غزير طيلة اربعة اجيال قاعدة كسروان

اتخذها حكام البلاد مركزاً لحكوماتهم ومسكناً لعائلاتهم من الامراء التركمان بني عساف الى المشايخ آل حبيش الى الامراء الشهابيين الى من تولى الحكم من بعدهم . فهناك آثار قصورهم ودورهم وبقايا الاعمدة والحجارة تشهد على ما كانت عليه من الرونق والعز والفخامة .

الا ان نظرك تلفته دار متسعة الارجاء انيقة يعجبك بناؤها وجدرانها القديمة السميكة تحوط بها اسوار عالية وبالقرب منها ميدان فسيح فيه معين ماء يصب في جرن كبير مستدير ملست الايام ملساً دائرته العليا . واذا دخلت هذه الدار تسير في مماش تعلوها القناطر المتينة فيها نور ضئيل يأتيك من منافذها الصغيرة وهنا وهنالك قطع من الرخام وكتابات عربية فتشعر انك امام عظمة بائدة . ولا غرو فانت في قصر قديم تاريخي بناه منذ مائتي سنة احد الامراء الشهابيين ، فيه كان مولد اعظم ابنائهم الامير بشير شهاب الكبير الذي ملأ اسمه تاريخ النصف الاول من القرن التاسع عشر وقد ابصر النور في ٦ كانون الثاني سنة ١٧٦٧ . ثم اتصلت هذه الدار الى الاباء اليسوعيين منذ نحو مائة سنة وحولوها معهداً لم يزل منهلا صافياً للعلم والتقى .(١)

---

(١) : ليس من وثيقة خطية تعين محل مولد الامير بشير بل العبرة في ذلك على النقل . ولذلك ارتأى بعض الكتاب الافاضل غير ما ارتأينا واثبتناه هنا استناداً الى ما دونه الرواة الثقاة . فمنهم من قال ان محل مولده هو المكان الذي تحول الى دير الآباء الكبوشيين المعروف في غزير ، ومنهم من ارتأى انه ولد في دار قريبة من دير الآباء اليسوعيين ، ومنهم من قال انه ولد بجوار

واسم والد الامير بشير الامير قاسم ابن الامير حيدر شهاب ، وامه ابنة عمه الامير منصور شهاب حاكم جبل لبنان ، وكان الامير قاسم متولياً على غزير اقطعه اياها الامير منصور لاسباب سياسية بعد ان ازوجه ابنته .

فانتقل اذ ذاك الامير قاسم الى غزير وتوطن فيها ورزق فيها اولاده الثلاثة الامير حسن وابنة ثم الامير بشير .

٣ — الامراء الشهابيون

ان الامراء الشهابيين سلالة اسرة اسلامية تتصل ببني قريش قبيلة محمد صاحب الشريعة الاسلامية ، واسم جدهم مالك الملقب بشهاب قدموا من الحجـاز الى حوران في القرن السابع المسيح في ايام الفتح العربي ، ثم انتقلوا في القرن الثاني عشر الى وادي التيم وقطنوا حاصبيا وراشيا وتقربوا من الامراء المعنيين حكام الشوف في ذلك العهد ، وكان بين الاسرتين عهود ومودة ومحالفة زادت توثيقاً بتبادل

مدرسة المزار ولرأي كل منهم اعتبار وسند له قيمته .

واذا قال قائل ان دير الآباء اليسوعيين هو الدار التي بناها الامير حسن شقيق الامير بشير قلنا ان ليس في هذا ما يضعف الرأي الذي اتبعناه لانه حسب هذا الرأي ، ان الامير حسن اضاف الى دار والديه أبنية جديدة وأصلح ما كان مندثراً فيها فجاء عمله بمثابة بناء جديد جميل ، والله أعلم .

الزواج بينهما حتى صارتا كأنهما واحدة .

ثم امتد حكم آل معن الى كل لبنان وظل مائة وثمانين سنة ، ولما انقرضت سلالتهم بموت آخر حاكم منهم الامير احمد معن الذي مات بدون عقب سنة ١٦٩٧ قام مكانها بحق الميراث الامراء الشهابيون واستلموا زمام حكم لبنان، وقد تم انتقال الولاية اليهم على الشكل الآتي :

قلنا ان الامير احمد معن مات بدون عقب الا ان كان له ابنة واخت قد تزوجتا اميرين شهابيين ، فزوج ابنته كان حاكم راشيا له منها ولد اسمه الامير حيدر لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، وزوج اخته كان حاكم حاصبيا له منها ولد اسمه الامير بشير . فمن ثم ، وعملا بحقوق الاستقلال القديم والامتيازات التي اقرهم عليها السلطان سليم الاول لما فتح مصر وسوريا سنة ١٥١٥ ، اجتمع اعيان لبنـــان من امراء ومقدمين ومشايخ وتشاوروا في من ينتخبون حاكما على لبنـان ، فقر رأيهم على ان يكون الحكم لآل شهاب ورثة آل معن واتفقوا على الامير بشير المذكور لانه ابن اخت الامير احمد معن ولاسيما لان ابن ابنته كان قاصراً .

فتوجه منهم وفد الى راشيا واتوا به الى دير القمر قاعدة البلاد ، فاستقبله الناس بالعز وبايعوه الولاية واعترفت تركيا بالحاكم الجديد واقرته وانعمت عليـه بواسطة معتمدها والي صيدا بعهد التولية او الفرمان وبالخلعة ، وهذه تكون عادة فروا ثميناً او شقة ثمينـة . وبعد وفاة الامير بشير انتخب الاعيان الامير حيدر السابق ذكره . ومـن

بعده حكمت سلالته الى ان انتهت سنة ١٨٤٢ بالامير بشير الثالث « ابي طحين » بعد ان حكمت مائة وخمس واربعين سنة .

ولما استلم بنو شهاب الحكم اقتدوا بخطة التساهل التي كان نهجها آل معن ، وتقربوا الى نصارى بلادهم وانتقوا منهم سائر كتابهم ومهذبي اولادهم ومنفذي احكامهم ومدبريهم ، ولا سيما من الموارنة الذين اتخذتهم الاسرتان عوناً لهما في كل امورهما ، وكان مدبر الأمراء يسمى كاخية توازي وظيفته منصب رئيس الحكومة او رئيس الوزراء في عهدنا ، واشهر مدبري المعنيين الحاج كيوان الماروني الديراني مدبر الامير قرقماس والدنخر الدين الشهير والكافاليار ناضر صفير مدبر الامير احمد آخر المعنيين ، وناضر هذا هو الذي وقف املاكه واسس دير الرومية في القليعات كسروان . واشهر مدبري الشهابيين الشيخ سعد الخوري جد اسرة آل سعد وابنه الشيخ غندور ومن احفادهما المفخرة اللبنانية المرحوم حبيب باشا السعد عم الوطني الهمام امين بك السعد المواصل تقاليد اسرته المجيدة في خدمة لبنان .

٤ — مذهب الامير بشير

ان الشهابيين لكثرة اختلاطهم بالنصارى وقفوا على مبادىء الدين المسيحي فدانوا به الواحد تلو الآخر ومثلهم فعل الامراء اللمعيون الذين كانوا من الطائفة الدرزية وبدأت حركة تنصرهم في اوائل القرن

الثامن عشر وللرهبانية الانطونية المارونية المعروفة برهبنة مار اشعيا (برمانا) يد جلى في تنصر امراء لبنان وهم ينتمون الى الطائفة المارونية ما عدا افراد قلائل اعتنقوا الطقس الملكي منذ عهد غير بعيد.

واما الامير قاسم والد الامير بشير فقبل مولد ابنه هذا بثلاث سنوات استدعى لديه في غزير المطران يوسف اسطفان الغسطاوي الماروني الذي صار فيما بعد بطريركاً على طائفته وطلب اليه ان يعلمه معتقدات الدين المسيحي وامرأته الست اسما وبعد ان فقهها وتحقق صحتها اقتبل سر العماد مع زوجته وولديه الاكبرين. ولما ولد الامير بشير تعمد مسيحياً مارونياً كأهله وكان تنصيره في كنيسة سيدة الابراج التي اقامها لابناء ملتهم المشايخ آل حبيش في القرن الرابع عشر ولا تزال الى الآن معروفة بهذا الاسم في غزير.

شمل الابتهاج هذه البلدة وضواحيها لدى ميلاد الامير بشير الا ان هذا الابتهاج لم تطل مدته لان الوفاة ادركت والده الامير قاسم ثلاثة اشهر ونصف بعد ولادته فتبدل الحزن غماً. كما ان والدته تزوجت بعد وفاة والده بالامير سيد احمد شقيق الامير يوسف حاكم البلاد. وهكذا قضت الايام ان يبيت الامير بشير يتيم الاب وشبه يتيم الام معرضاً كأمثاله ان ينشأ كما تشاء الظروف وتبقى اخلاقه بحسب ما تشاء الفطرة. الا انه لحسن طالعه لم يبلغ هذا الحد ولو انه بقي من ذلك بعض الآثار لان العناية انعمت عليه باثنين استعاض بهما عن والديه لو صح ان يكون في الدنيا ما يقوم مقام عين الاب وقلب الام. ولكن هيهات!

٥ - مربية الامير بشير ووصيه

بعد وفاة والد الامير بشير احتضنته امرأة ارملة تدعى مرحبا من بني البشعلاني من صليما المتن كانت في خدمة ابيه وبقيت قائمة على تربيته وخدمته وكان يعتبرها ويدعوها امه حياته كلها . وفضلا عن ذلك كان ابوه الصالح لما علم بدنو اجله اقام وصيا عليه وعلى اخيه الامير حسن وقيما على املاكهما الشيخ منصور الشدياق من عشقوت ووكلهما مع والدتهما اليه ليعتني بتربيتهما تربية مسيحية . وبعد سنة استعفى الشيخ منصور من الوصاية فاقام مكانه البطريرك يوسف اسطفان وصيا عليهما صديقه الشيخ بطرس نوفل الخازن من القليعات كسروان لما كان يعهد فيه من الفضل والفضيلة وحصافة الرأي فاعتنى خير عناية بتربيتهما وتلقينهما العلوم مما كان يحفظ له الامير بشير اجمل ذكرى حتى انه ايام كان في اوج العز لم يزل يذكر السنديانة العظيمة الدهرية التي كانت ولا تزال امام بيت الشيخ بطرس فكان الامير كلما سنحت الفرصة يسأل عن تلك السنديانة ويوصي بالحرص عليها لجمال منظرها وموقعها ولانه قضى شطراً بديعاً من حياته تحت ظلها .

ومثل وفائه نحو وصيه كان وفاؤه نحو مربيته فانه لم يرض بان تفترق عنه قط . ولما تسلم زمام الحكم واشتهر اسمه كانت مرحبا تسكن معه في قصره لها نفس المنزلة التي لافراد اسرته . وقد زاد اعتباره لها بعد هذه الحادثة وهي ان بعض خصوم الامير ارسلوا رجلا اسمه فارس

الحكيم ليفتك به فاحتال حتى دخل ليلا غرفة محاذية غرفة الامير، ومن الغريب انه لم يشعر به احد الا مرحبا التي افاقت حالا ورأت الرجل يتناول طبنجات الامير المعلقة على الحائط، فتعلقت باثوابه ورفعت صوتها مستغيثة، فعضها الاثيم بيدها ودفعها عنه ونجا بنفسه فسقطت هي لا تعي فشعر الامير بحركة ونادى « مرحبا امي » فلم تجب فنهض حالا وحدثته مرحبا بما جرى فبث العيون وقبض على الجاني الذي اقر بفعلته ونال ما يستحقه من العقاب . فزادت منزلة مرحبا علاء لدى الامير بعد هذه الحادثة التي كان لا بد من تدوينها للتاريخ اشادة بذكر تلك المرأة اللبنانية الباسلة الامينة التي بخدمتها امير لبنان وحرصها على حياته الثمينة منذ ولادته الى آخر عمرها سجلت لنفسها ذكرا طيبا وفضلا على ابناء لبنان لا نخاله يقل عن فضل امهات وشنطون ولنكلن واديسون وباستور وغيرهن ممن ربين للاوطان رجالا عمروها وللبشرية علماء نفعوها . وقد لاحظ المؤرخ المدقق الخوري اسطفان البشعلاني راوي هذه الحادثة ان امانة مرحبا كانت من اسباب تقرب بعض افراد الاسرة البشعلانية من امير لبنان فكان كثيرون منهم في خدمته ومن خاصته . وقد كانوا لعمري شهوداً حية على نبل عاطفة الامير وتقديره للمعروف . ومن هذا القبيل النادرة الطريفة التالية وقع اول فصل منها في حداثة الامير لذلك نوردها الآن .

٦ – كعكة الامير

بعد وفاة والده لبث الامير بشير واخوه في غزير الا ان وصيهما كان ينزل بهما الى برج البراجنة قرب حدث بيروت حيث كانت والدتهما ثم يذهبون الى بشامون وبيت الدين حيث كان للاميرين ارزاق .

وكان الامير الصغير بشير يلفت الانظار بما كان عليه من حدة الذكاء وخفة الحركة وسرعة الادراك والانتباه الى كل ما يجري امامه وكان القوم خاصة يعجبون بتلك القوة الساحرة في عينيه فيستميل قلوبهم ومن هؤلاء رئيس دير مار انطونيوس في قرية سير في الشوف كان بينه وبين والد الامير بشير علاقات ودية قديمة فاخذه معه الى الدير ليروح النفس مدة الصيف وعهد الى احد اخوة الدير ان يعنى بامره .

وهناك امام الدير في ساحة فسيحة تحف بها الاشجار كان الامير الصغير يجتمع مع اترابه يلعبون . فاتفق يوماً ان وقف عليهم بائع كعك فاحاط به الصبية يشترون ، ولم يكن مع الامير اذ ذاك دراهم فانزوى محولا وجهه عن الاولاد ، وكأن الحنان لمس قلب بائع الكعك ولاسيما انه شاهد على وجه ذاك الصبي امارات النبل وكرم النفس ، فاخذ كعكة وقدمها له فرفضها الامير باباء ، فالح البائع وقد لحظ تأثير عمله في تلك النفس الكبيرة وقال : بحقك يا سيدي اقبلها مني ولا تخجلني امام رفقائك . فتناولها منه الامير الصغير بهدوء ولو مرغماً

وشكر البائع وانصرف بسرعة ...

اربعون سنة مضت على تلك الحادثة وقد بلغ الامير اوج عزه ومجده. وكان يوماً في قاعته مرتاحاً الى مجالسة امنائه واذا بجلبة يسمعها في باحة القصر فاستنكرها وسأل حاجبه عن جليتها فانبأه ان هناك شيخاً بائع كعك يماحكه احد الخدم فاستدعاه اليه فحضر البائع مذعوراً غير ان الامير طيب خاطره ولاطفه فاخذ البائع يتشكى من ظلم احد الخدم. وكان الامير يحدق في وجه البائع ويتأمل طويلا بدقة وامعان ثم انفرجت ملامحه وقال: هل تعرفني يا عم؟ قال: دام عزك مولاي ومن لايعرف الامير بشير. قال: وهل كلمتني قبل الان؟ قال: لم اسعد بهذا الشرف. قال: الا تذكر ولداً صغيراً اهديت اليه كعكة تحت سنديانة ديرسير من نحو اربعين سنة؟ فاطرق البائع بنظره الى الارض ثم اجاب: نعم. قال الامير: انا ذلك الولد... فحدق الشيخ الى الامير... وبينما كانت تنهدة عميقة تتصاعد من صدره كانت دمعتان صافيتان تترقرقان في عينيه. قال الامير: بارك الله بك يا عم فقد حان الآن وقت تأديتي لك ثمن الكعكة. اعلم ان الاحسان لايضيع. وانعم عليه بعطية جزيلة تكفيه تعب الكدح وبيع الكعك. جميل هو الوفاء في عرفان الجميل واجمل منه الاحتفاظ به في قلوب العظماء حياتهم كلها ولو طالت..

٧ — الامير بشير في العاصمة

بلغ الامير بشير السادسة عشرة من عمره ولم يزل مسكنه في

غزير فرأى ان ينتقل الى ساحل بيروت ، فرحل مع مربيته مرحبا وسكن مدة في برج البراجنة على مقربة من الحدث حيث كان يذهب لزيارة امه والى بشامون للصيد الذي كان مولعاً به . وقد كان قوي البنية تظهر عليه علائم النجابة والادراك . ثم انه بعد مدة عزم على مغادرة برج البراجنة وابدالها بمكان يجد فيه ميداناً اوسع للعمل . فحزم امتعته على ناقة واركب عليها مربيته مرحبا كأم له وسار معها الى بيت الدين واذ لم يلاق فيها مسكناً يلائمه ذهب وقطن دير القمر مع اخيه الامير حسن وفي نفسه طموح وآمال لا يتسنى له تحقيقها في مكان افضل منها لانها عاصمة البلاد ، والحاكم يومئذ الامير يوسف شهاب من اقاربه الادنيين وفيها كثير من ابناء شهاب ايضاً وهي تضيق على من كان يأتيها كل يوم من مختلف الانحاء من اصحاب الدعاوي والمصالح وارباب المآرب والاحزاب والزعماء وذوي الطموح وطلاب الوظائف الى غيرهم ممن كان يلتقي بهم الامير بشير كل يوم . ولم يلبث ان اخذ يتدخل بالشؤون تدخلا اكسبه ثقة الناس ومحبتهم لما كان يبديه من ضروب المروءة والمرونة والنشاط رغماً عما كان عليه من ضيق ذات اليد . ولم يك يخفى على الامير بشير ان في البلاد اخصاماً للامير يوسف يعملون على اثارة الفتن وان له ايضاً انصاراً مخلصين فكان ان انضم الامير بشير الى الاخصام وانضم اخوه الامير حسن الى الانصار . وكان ابناء الاسره الجنبلاطية الدرزية وهم من اخصام الامير يوسف معجبين بالامير بشير يعملون على استمالته اليهم ويقدمون له الخدم والمساعدات وفي نيتهم

ان يجعلوه مزاحماً للامير يوسف على الولاية . ولم يمض زمن طويل حتى بلغ الامير يوسف ان الامير بشير منضم الى اخصامه ولا عجب ان اثار ذلك حنقه .

وكان الشيخ سعد مدبر الامير يوسف عارف بامر الضغائن في قلب الاميرين وهو يسعى في ازالتها بحكمته المشهورة واذ كان الامير يوسف يظهر امامه استياءه من الامير بشير قال له الشيخ سعد : ان الامير بشير يا مولاي في قبضة يديك وقد يكون ضيق ذات اليد هو الذي دعاه الى الاشتراك مع اخصامك فالاحرى ان تسكته بتعيينه في خدمتك ، وهنا كثير من الخيل فارى ان ترسل له فرساً وتستدعيه اليك وتستفيد من خدمته . فاستصوب الامير يوسف رأيه وامر ان يعمل بما اشار به . ولما وصل الرسول الى الامير بشير وبلغه ارادة الحاكم قال له الامير بشير : ان هذه الفرس وعدتها ليستا من مقامي فارجعهما الى الذي ارسلها . فتردد السائس في تلبية الامر . فزجره الامير بشدة وتهدده فخاف واضطر ان يعود ويخبر الامير يوسف وكان الشيخ سعد حاضراً فقال هذا للامير :

ـ اني ارى ان الامير بشير مصيب برفضه هذه الفرس لان عندنا خيلا وعدداً خيراً منها فلنرسل له فرساً من جياد الخيل وعدة من افخر العدد .

ففعلوا ذلك وحضر الامير بشير وقابل الحاكم وزالت الضغائن

بفضل الشيخ سعد، وعهد الامير يوسف الى الامير بشير بعمل يقوم به مع اخيه الامير حسن ، وأعجب بخدمة الامير بشير وكان يرسله بالمهام العسيرة فيعود مكللا بالنجاح واصعب هذه المهام واظرفها ايضاً هي التي يلي ايرادها .

٨ ـ زواج الامير بشير

توفي احد الامراء الشهابيين في حاصبيا ، وهو زوج ابنة اخي الامير يوسف الاكبر ، فوقع اختلاف بين ورثة الامير وارملته واستحكم الشقاق بينهما ولم يقدر احد على ازالته . فرأى الامير يوسف ان يرسل الامير بشير بهذه المأمورية الدقيقة والخطيرة على يقين انه يصلح بين الفريقين وكلاهما عزيز لدى الحاكم . فعالج الامير بشير القضية بحكمة وروية فائقتين حتى توصل الى حل رضي به الفريقان الرضى التام ، فضلا عن ان مأموريته اسفرت ايضاً عن نتيجة اخرى حميدة ، وهي زواج الامير بشير بالارملة المذكورة فعاد معها الى دير القمر ، وكانت ذات ثروة وافرة فاغنت زوجها اذ اشترى من مالها بيت الدين ومزرعة الجيه وبه استعان في شؤونه الادارية والسياسية. وكانت هذه الاميرة مسلمة مثل اهلها فما لبث ان اوقفها زوجها على تعاليم الدين المسيحي فتنصرت ، وبارك الله زواجهما فرزقا اولادا ثلاثة الامير قاسم والامير امين والامير خليل . وقد ورد في كتاب الكولونيل شرشل

عن اعتبار الامير لزوجته ما يلي :

«ولما انتابتها الاسقام في اواخر حياتها وكدرت صفاء عيشها لقيت ما فرج كربتها في عطف الامير وحنانه واهتمامه المتواصل براحتها» وقد جاءت رواية شرشل مطابقة لما ذكره المؤرخون عن حب الامير واعتباره لزوجته الاولى (الست شمس) مع سعيه ليجعل لها الحياة سعيدة هنيئة رغم ما كان هنالك من الدسائس بحيث انه لم يصدر منه قط ما اثار في نفسها كدراً او غيرة . ولما طعنت في السن واضنتها الامراض لم تضعف عاطفة الامير اصلا بل انه كان يقوم هو نفسه بخدمتها . ولما توفاها الله سنة ١٨٢٩ اقام لها مدفناً لائقاً في سراي بيت الدين . ولما نقلوا رفات الامير في الصيف الماضي من الاستانة وضعوه في قبر بجانب قبرها .

ويشاهد ضريحها في سراي بتدين والصليب عليه وقد حفروا على بلاطة الضريح الابيات التالية :

هـــذا ضريح قـــد غدا	روض نعيم مستطـــاب
قد اغربت (شمس) الضحى	فيه فغنـــا النور غاب
فغادرت كوكب الـ	احسان في آل شهاب
فعزهـا قـــد ارخوا	باق توارت في الحجاب

وبعد وفاة زوجته باعوام رغب الامير بشير ان يقترن بالزواج ثانية ومثله ابنه البكر الامير قاسم الذي كان تزوج وماتت زوجته . غير ان الامـير بشير جزم برأيه السديد ان لا يكون زواجها بفتاتين

من لبنان كيلا يكون لاهل الزوجة سبيل للمداخلة في امور الحكم وعرقلة الادارة ولاسيما في تلك الايام الملأى بالدسائس والمطامع. فارسل جوهريه الى اسطمبول يستحضر منها فتاتين من بنات الشركس بعد الاتفاق الوافي معها ومع اهلها على مصيرهما. وبعد وصولها الى لبنان بمدة استدعى الامير بشير اسقفا ارمنيا كاثوليكيا من دير بزمار كسروان اسمه المطران يعقوب يتقن اللغة التركية، وهي الوحيدة التي تعرفها الفتاتان، وباسم الامير بشير كلمها المطران بامر تعليمها مبادىء الدين المسيحي على امل اعتناقه فرضيت الفتاة المعدة للامير قاسم اما الفتاة المعدة للامير بشير واسمها حسن جهان فلم ترض. فلم يشأ الامير ان يتزوجها فطلبت ان تبقى في قصره تؤدي ما تقدر عليه من الخدم في المطبخ فسمح لها بذلك. وبدأ المطران يعقوب يعلم الفتاة الاولى التعاليم الدينية ولما اتقنتها قبلت سر العماد وتزوجها الامير قاسم. ثم ان حسن جهان سألت ان تتعلم هي ايضاً وتتنصر فتم لها ذلك وتزوجها الامير بشير ورزق منها ابنتين هما الاميرتان سعدى (ولذلك لقبوه بابي سعدى) وسعود.

ولم يكن زواجه الثاني اقل هناء وتوفيقاً من الاول اذ لم يحصل بين الامير وزوجته الشركسية ما يكدر الصفاء، وقد رزق منها الامير ابنتيه سعدى وسعود كما تقدم. وكان لحسن جهان زوجة الامير الثانية كلمة مسموعة لديه ونفوذ لم تكن لتستفيد منهما الا في سبيل الخير، كتخفيف صرامة الاحكام او تخفيف اثقال الضرائب عن عواتق

ابناء لبنان ، فكان من ثم هؤلاء يجتهدون بايصال مطالبهم الى الامير على يدها . وهي قد جاوبت على عطف الامير وحبه باخلاصها له طول الحياة ، حتى انها بعد ان صرف الامير امواله كلها في منفاه على اسرته وحاشيته باعت حسن جهان البعض من مصاغها لتواصل القيام بالنفقات المذكورة، وقد عرف لها الامير فضلها فاقامها وكيلة مطلقة عنه بعد وفاته كما جاء في البند الثالث من وصيته « قد اقمتها وكيلة عني ... ولا احد من ورثاي ولا من خلافهم له ان يتعارضها بشيء ... وهي الوصية على اولادي اولادها سعدى وسعود وتربيهم بخوف الله تعالى وتجوزهم برضاهم وما لاحد له معها ولا معهم معارضة » . وبعد وفاة الامير عادت الى لبنان وعاد معها مرشد اسرة الامير الخوري اسطفان حبيش وبقي في خدمتها الروحية الى مماته في الجية. وقدابدى لها داود باشا اول متصرف على جبل لبنان اسنى مظاهر التجلة والاكرام واشترى منها قصر بيت الدين وجعله مركزاً للمتصرفية. وكانت وفاتها سنة ١٨٧٥ ويشاهد مدفنها في برج البراجنة قرب بيروت ، محفورة عليه هذه الابيات :

الا اهموا الدمع حسن جهان سارت عن الدنيا وجدّت بالمسير
لها مجد الامارة من شهاب قرينة سيد العليا الشهير
ومذ امّت جنان الخلد تبغي لقاء قرينها المولى البشير
فحازت في النعيم ارخت يسرا وقد باتت على اعلى سرير

الجزء الثاني

الامير بشير في عهد استلامه الحكم ١٧٨٨ - ١٨٤٠

الفصل الاول

كيف صار الامير حاكماً - ادوار حكمه الثلاثة

بعد ان عاد الامير بشير موفقاً الى دير القمر زادت شهرته اتساعاً وزاد ميل الناس اليه . وحدث ان الامير يوسف سنة ١٧٨٨ عزم على التنازل عن الولاية لانه وجد نفسه عرضة لمقاومة اخوته الذين نازعوه الحكم ولمخاصمة الجنبلاطيين وثورتهم، ولبغض احمد باشا الجزار الطاغية والي عكا وصيدا، فضلا عن انه تيقن ان معظم البلاد غير راضية عن حكمه وقد سئم وضجر من المنازعات التي قاساها مدة حكم طال ٢٥ سنة . فعملا بتقاليد البلاد من اخذ رأي الامة في من يخلفه على الامارة جمع اعيان لبنان وذكر لهم متاعبه، واشار اليهم ان ينتخبوا لهم حاكماً سواه من ابناء عمه القاطنين في الجبل، خوفاً من ان يحكم احد امراء وادي

التيم. وبما ان اولاده كانوا بعد قاصرين رشح لهم الامير بشير موضوع كتابنا هذا، وهو اذ ذاك شاب يافع لم يتم الحادية والعشرين من عمره، فلم يترددوا لحظة لانه كان على ما وصفه صاحب كتاب تاريخ الاعيان «اميراً جليلا وفتى نبيلا ذا سطوة ومهابة، وكان الجزار يميل اليه كل الميل ويرغب في ان يجعله ولياً، وله معه الدسائس والرسائل بهذا الشأن وكان بين الامير بشير والفئة الجنبلاطية محالفة وعهود».



الامير بشير الشهابي

فاحضره الامير يوسف واشار اليه بان يتوجه الى الجزار ويتوشح خلعة الامارة على البلاد، فابى الامير بشير الرضوخ مراعاة لشعور الامير يوسف نسيبه. فاعاد هذا عليه الكرة وقال: «انزل يا ابني الى عكا وتولّ مكاني». قيل ان الامير بشير اجابه: «اخاف ان انزل ابنك

وارجع ابن الجزار» فاجابه الامير يوسف بكلمة تدل على بعد نظر وحرية مع كرم خلق: « ليأكلها السبع ولا يأكلها الضبع » ومعناه انك انت احق بالولاية من غيرك.

فتوجه الامير بشير الى عكا في ٢٢ آب من السنة نفسها فاستقبله الجزار بالترحاب، وفي آخر الشهر قلده الولاية على البلاد وارسله الى دير القمر مستصحباً اياه بالقوة الكافية لتساعده على تسلم زمام الحكم لحكم الامير بشير وطال حكمه واستقام.

الادوار الثلاثة

حكم الامير بشير لبنان مدة ٥٢ سنة جرت فيها حوادث جمة لها في تاريخ لبنان اهمية كبرى من حيث تأثيرها الشديد على مصيره لانها كانت اساساً متيناً وتمهيداً لاستقلاله الحاضر. ويمكن ان يقسم عهد حكمه الى ثلاثة اقسام او ادوار او ثلاثة حقبات:

الدور الاول ـ دور المتاعب والفتن مدة ١٩ سنة من سنة ١٧٨٨ الى سنة ١٨٠٧.

الدور الثاني ـ السكينة والعز والسؤدد مدة ٢٥ سنة من سنة ١٨٠٧ الى سنة ١٨٣٢.

الدور الثالث ـ دور الحروب والتضحيات في سبيل الاستقلال التام مدة ثماني سنوات من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٤٠ وهو عهد الحكومة المصرية في لبنان.

في الفصول التالية من هذا الجزء نسرد سياق مرور هذه الادوار على سبيل الايجاز وسنأتي في الاجزاء التابعة على ذكر تفاصيلها وطرائفها.

الفصل الثاني

الدور الاول من حياة الامير بعد استلامه الحكم ١٧٨٨ — ١٨٠٧

دور المنازعات والقلاقل

ابتدأ الامير بشير يقاسي المتاعب ويلاقي الفتن من يوم تسلمه زمام الحكم في لبنان ، اذ ان بعض الامراء الشهابيين انسبائه قاموا يزاحمونه على الولاية استناداً الى حقوق عائلتهم وينازعونه اياها منازعة متواصلة الواحد تلو الآخر من الامير يوسف نفسه ، وقد سبق خبر تنازله عن الحكم وترشيحه الامير بشير ، الى اولاده بعد موته بواسطة مدبريهم عبد الاحد باز واخيه جرجس ، الى ستة امراء غيرهم يدفعهم الى ذلك عاملان لا ندري ايهما اقوى وافعل هما : الميل الفطري الى السيادة ويد السياسة التركية بواسطة عمالها ولاة سوريا واخصهم احمد باشا والي صيدا . فهذا وصمه التاريخ بلقب يعيبه وقد استحقه وهو لقب « الجزار » ولا يعرف الا به ومعناه القصاب اي الذي مهنته ذبح الغنم والبقر وما اشبه ، وقد لصق به هذا اللقب لانه في اول امره لما قدم الى مصر من البشناق وطنه (مقاطعة في يوغسلافيا) دخل بخدمة

علي بك زعيم مماليك مصر وحا كمها، وكان هذا يرسله للفتك بمن يشاء من اخصامه فيقوم بعمله بالسرعة والشراسة وصلابة القلب فسمي عفواً جزاراً ثم فرمن خدمة سيده وذهب الى اسطمبول. وبعد تقلبات جمة كثرت فيها الخيانة والغدر اذا به يعين والياً على صيدا فاستغل موقفه لاعمال الظلم والتخريب في لبنان، وسهل عليه ذلك لان الامير اللبناني بعد انتخابه حاكماً على لبنان كانت العادة المألوفة ان يطلب خلعة التثبيت من السلطان العثماني فينالها بواسطة احد ولاة سوريا اخصهم والى صيدا كما رأيت من انتخاب الامير بشير، فكان من ثم والي صيدا يفتح باب المزاحمة ويجود بالخلعة على من يجزل له العطاء دون التفات الى صفاته او الى صالح الشعب . وكان فوق ذلك لا يزال همه في جعل البلاد ملعباً للفتن والمشاغب تحقيقاً لحلم لم يفارق مخيلة الدولة العثمانية قط وهو القضاء على استقلال لبنان واخضاعه للدولة اسوة بباقي الولايات بحجة قمع الفتن. وكان لبنان قذى في عيني الدولة لانه وحده بين كل الاقطار العثمانية كان حائزاً على استقلاله النوعي منذ القديم فكان من ثم الولاة المذكورون يسعون وراء تحقيق هذا الحلم باثارتهم الفتن الاهلية وتقوية حزب على آخر ثم مناصرة هذا على ذاك عملا بالمبدأ الفاسد المعروف « قسّم تسد » . لكن قد طاش سهمهم ولم يبلغوا هدفهم لان الامير بشير فطن بثاقب نظره الى الفخ المنصوب له والى الاخطار المحدقة بلبنان فتدارك الامر بحكمته وثباته الا انه من جراء تلك المنازعات قاسى من الاهوال والشدائد الواناً. وقد قضت عليه الحكمة في اطوار هذه

المنازعات ان تتخلى عن الحكم حقناً للدماء ويبارح لبنان اربع مرات: مرتين الى حوران ومرتين الى مصر، فكان يستلم الحكم مزاحموه وكانت من ثم تعلو تشكيات الناس من سوء ادارتهم وظلمهم ويطلبون بالحاح رجوع الامير فكان يعود اليهم اشد قوة وعزاً. فصبر على القسوة صبر الكرام حباً بلبنان وضنا باستقلاله حتى تم له الظفر اخيراً على مزاحميه واخصامه لا سيا بعد موت الجزار ١٨٠٤ فاوقع بهم العقاب وعامل بالقساوة كل من كان منهم يحدث الشغب والقلاقل، وهكذا توصل الى قمع الفتن وقطع دابر الفساد فاستقر له الحكم واستقل به وحده نهائياً سنة ١٨٠٧ وفيها يبتدىء الدور الثاني.

الفصل الثالث

أهم حوادث هذا الدور

علاقات الامير مع نابوليون بونابرت والكومودور سميث

يطول بنا ايراد كل الاحداث التي جرت في اثناء هذه الحقبة الاولى وقد كثرت فيها الاهوال والمصاعب على الامير بسبب تقلبات الجزار وغدره لذلك نقتصر على ذكر حادث واحد منها له اهميته في حياة الامير ادى به الى رحلته الاولى الى مصر سنة ١٧٩٩ والى انشاء

العلاقات مع الكومودور سميث الانكليزي نعني به حادث الحملة الفرنسية على مصر وسوريا بقيادة نابوليون بونابرت .

•

تولية مزاحمي الامير بشير

لما كانت سنة ١٧٩٨ تغير الجزار على الامير بشير لاتهام الجزار الامير بالاتفاق مع الفرنسيين ، وانحاز الجزار الى اولاد الامير يوسف مزاحمي الامير على الحكم بمساعي مدبرهم الشيخ جرجس باز . وكان الجزار قد امر بقتل الامير يوسف في عكا سنة ١٧٩٠ . واذ اسند الى اولاده الولاية على جبل لبنان مكان الامير بشير كما تقدم كتبوا الى احزابهم يبشرونهم بذلك ، غير انه بلغ الجزار في هذه الاثناء وصول الجيش الفرنسي الى الاسكندرية بقيادة بونابرت الشهير المعروف باسم نابوليون الاول، فقلق بال الجزار واضطرب وحسب للامر الف حساب وعدل عن العزل والتنصيب وعن ارسال الامراء بالعسكر لاستلام زمام الحكم في لبنان . واما وصول الجيش الفرنسي الى الاسكندرية فهذه حكايته :

ان القائد الكبير بونابرت بعد ان خاض الحروب في اوربا ودوخ اعظم دولها الا انكلترا ، وكانت هذه لا تزال تضمر لفرنسا العداء ، صمم هو النية ان يهاجم انكلترا في اعز مستعمراتها في الهند فيستولي عليها . لذلك بدأ بتمهيد الطريق في البلدان التي تفصله عنها فجهز في

طولون احد المرافىء الفرنسية الحربية الكبرى جيشاً مؤلفاً من ٣٦ الف مقاتل وكثيراً من المراكب لنقل الجنود والذخائر وعدد الحرب. واردف بجيشه نحو مئة وعشرين معالماً بارعين في علوم وفنون مختلفة لاستقصاء احوال مصر وآثارها.

وفي ١٦ ايار سنة ١٧٩٨ سار نابوليون بهذا الجيش دون ان يعلم احد وجهة سيره. فما لبثت ان رست مراكبه امام الاسكندرية وانزل جنوده على مقربة منها في مينا ابي قير ثم دخلها عنوة وواصل سيره الى القاهرة وفتحها ثم استولى على كل الاقطار المصرية. وكانت دولة تركيا في هذه الاثناء تستعد لمحاربة الفرنسيين واخراجهم من مصر وقد عرضت عليها انكلترا وروسيا مساعدتها وأبرمت بين هذه الدول معاهدة ثلاثية في سبيل هذه الغاية وشرعت حالا بتحقيقها.

نابوليون وجوزفين

اما بونابرت فاراد ان يباغت تركيا باخذه سوريا قبل ان تكمل استعدادها.

حصار عكا

نهض بونابرت من مصر بطريق البر الذي يفصل مصر عن فلسطين ووصل الى العريش القائمة على حدودهما، واحتل غيرها من المدن والقرى الفلسطينية بوقت وجيز، اي خان يونس وغزة ويافا والرملة وحيفا، الى ان بلغ عكا ذات الاسوار الحصينة ومركز احمد باشا الجزار وقاعدة ولايته الشاسعة الاطراف وامنع المعاقل في الاقطار الشرقية، فاقام رجاله الحصار عليها براً وضايقوها وكانوا يعتقدون انهم يستولون عليها بمدة ٢٤ ساعة وبعدها يسهل استيلاؤهم على سوريا بل على الشرق اجمع .

اما الجزار فهب للدفاع عن عكا وقامت عساكره بمقاومة المحاصرين من الداخل بينما كان الاسطول الانكليزي يرشقهم بالقلل النارية بامرة قائده الاعلى الكومودور سدني سميث الذي حالما سمع بقدوم الفرنسيين أسرع الى مياه عكا لمساعدة الاتراك عليهم .

الامير بين الجزار وبونابرت

كان لخبر الحملة الفرنسية وانتصاراتها صدى ارتياح بين سكان البلدان التي كان يشملها حكم الجزار اي بلاد صفد وبلاد بشاره اذ كانوا قد ذاقوا منه الامرين، وهم القبائل العربية وابناء الطائفة الشيعية، فأتى زعماؤهم الى بونابرت فرحب بهم وقلدهم الولاية على البلدان التي كانوا

يحكمونها قبلا، وصار رجالهم يأتون الى معسكر الفرنسيين ليبيعوهم الزاد وما اشبه، الا ان بونابرت وجه اولا انظاره الى امير لبنان كانه اي بونابرت كان عارفاً بما كان عليه الامير من الاقتدار وبما كان بينه وبين الجزار من الضغائن والعداوة، لذلك لدى وصول بونابرت الى عكا ارسل معتمده الكولونل سبسياني بكتاب الى الامير يخبره بقدومه ويعده باناته مبتغاه من توسيع حدود لبنان ورد بيروت اليه بعد ان اغتصبها الجزار وارجاع مدن أخرى تلزم لتجارته، وختم كتابه هكذا: «اود انك في اسرع ما يمكن تأتي انت او ترسل معتمداً ليقابلني هنا امام عكا لكي نتخذ الاحتياطات اللازمة للقضاء على العدو المشترك».

غير انه في الوقت نفسه كان الجزار ايضاً يراسل الامير طالباً اليه النهوض بجيشه اللبناني الذي كان خبر مقدرته ليساعده على رد هجوم الفرنسيين والقضاء عليهم وكان الجزار يصحب طلبه بالوعد والوعيد.

فبين هذين الطلبين المتنافرين بات موقف الامير حرجاً دقيقاً، فوقف برهة مفكراً محتاراً لانه من جهة اذا هو ساعد بونابرت، اتباعاً لميوله الخاصة وتحقيقاً لرغائب ونزعات ابناء لبنان اجمالا، ماذا يكون مصيره ومصير لبنان معه في حال انتصار الدولة وانكسار بونابرت وهو اعرف الناس بشراسة الجزار ومطامع تركيا في لبنان؟ فضلا عن انه لم تكن تخفى عليه مناعة حصن عكا. غير انه من جهة اخرى اذا هو حالف الجزار على بونابرت خلافاً لنزعات قومه وتقاليدهم وتاريخهم

أيسلم لبنان واميره من غضب بونابرت فيما اذا تغلب هذا على تركيا واكتسح البلاد السورية كما اكتسح الاقطار المصرية؟ لذلك لم يرد ان يقامر بمركزه ولا باستقلال لبنان ولا ان يعرض بلاده للحروب وسفك الدماء فرأى من باب الحكمة ان يبقى على الحياد. ففي جوابه الى الجزار استغل ما كان هذا اقدم عليه من اقصاء الامير عن الحكم وتولية ابناء الامير يوسف مكانه كما تقدم، فكتب اليه يعتذر عن تلبية طلبه لعدم انقياد اهل البلاد له بعد ان بلغهم خبر تنحيه عن الحكم وتولية اولاد الامير يوسف، فكادت نفس الجزار تنشق غضباً لهذا الجواب.

واما رسالة بونابرت الى الامير فتجاوز هذا عن الجواب عليها. فكتب اليه بونابرت يعاتبه على عدم المجاوبة فوقع الكتاب في يد متسلم صيدا، فارسله هذا الى الجزار، فصفا خاطره على الامير وكرر الطلب اليه بارسال المساعدة لتخليص عكا فجاوبه الامير معتذراً كالاول. فازداد الجزار غضباً الا انه اضطر في حينه ان يكتم حنقه ويؤجل الانتقام لوقت آخر. وظل الامير على حياده ظاهراً يراقب مجرى الامور عاطفاً على الجيش الافرنسي باذلا له ما استطاع من المساعدة. وقد ارسل الى بونابرت بندقية ثمينة عربون الولاء، ونابوليون كان اهدى اليه سيفاً ثميناً تاريخياً اتصل بعد موت الامير الى ورثته وقد قدمه احدهم الى المتحف اللبناني في بيروت حيث يحتفظ عليه بكل عناية.

موقف ابناء لبنان من حصار عكا

اما البطريرك الماروني وكان في ذلك الحين يوسف التيان فلم يكن ثمت ما يدفعه الى اتخاذ خطة الامير الحيادية بل ابى الا ان يجري على خطة سلفائه محافظاً على التقاليد القديمة اقراراً بالجميل نحو الامة الفرنسية لما لها من الايادي البيضاء على شعبه منذ القديم ولا غرو فالفضل يعرفه ذووه. وهذه كانت استعدادات وعواطف شعبه وعواطف بقية الطوائف المسيحية في لبنان. وقد جرى ايضاً المتاولة مجرى ابناء ملتهم في بلاد بشاره. كل ذلك للتخلص من ظلم الجزار والانعتاق من حكم بني عثمان وانالة لبنان الاستقلال التام. فارسل من ثم البطريرك التيان وفداً الى بونابرت يعرب له عن عاطفة الولاء نحو فرنسا، واوعز الى الشيخ يوسف حمزه حبيش بان يجمع المتطوعين لمساعدة الجيش الافرنسي، فاجتمع تحت قيادة الشيخ عدد لا يستهان به من الموارنة وذهبوا الى عكا لمساعدة محاصريها فاهدى بونابرت الى الشيخ الحبيشي سيفاً فاخراً لا يزال محفوظاً عند آل حبيش.

ومما يذكر عن ابناء لبنان في هذا الصدد انهم نشطوا لحمل ما يلزم من الاغراض للمعسكر الفرنسي في عكا من زاد وخمر وبضائع وما اشبه، ومنها ما كان يباع للجنود ومنها ما كان يرسل اليهم بمثابة تقدمة. ومن هذا القبيل ما ورد في تاريخ الاعيان صفحة ٤٤٩ عن الهدية التي ارسلها الامراء اللمعيون اصحاب مقاطعة المتن قال: « ثم ان المشايخ

بيت عماد (وهم من الطائفة الدرزية التي لم تكن موالية للفرنسيين) ربطوا طريق البقاع على المكارية الواردة بالحمر من بكفيا الى اوردى (معسكر) الفرنساوية وضبطوا جملة بغال، فعظم ذلك على الامراء بيت بللمع وارسلوا الى بيت عماد طالبين اطلاقهم فما قبلوا بل ارسلوا لهم الجواب سلباً، فارسل الامراء بيت بللمع رجالهم وكبسوا (هاجموا) قرية كامد اللوز (المختصة بالعمادية) ونهبوها ». وهذا حادث ثان يشبهه رواه الكولونل شرشل اليك تعريبه: (مجلد ٣:٨٨) وكان المشائخ آل تلحوق يضبطون معابر نهر الدامور قرب صيدا فقبضوا على رجل ماروني يسوق بغلا حمله ذخيرة الى الفرنسيين في عكا، فاوثقوه وسلموه الى متسلم بيروت الذي ارسله في المركب الى الكومودور سدني سميث، ولا يبعد ان يكون الامير بشير يوافق سراً على ارسال تلك الذخائر ... وسترى في الفصل التالي ما كان للحادث الثاني من النتائج الخطيرة.

رفع الحصار عن عكا

ضايق الفرنسيون عكا في شدة الحصار مضايقة حصل للجزار منها اضطراب عظيم ادى به الى اليأس من النجاة، فعقد النية على الفرار عن طريق البحر، لكن الضباط الانكليز احلافه القائمين برد المحاصرين شجعوه وثبتوه في الصبر على الحصار، وكاد يتم النصر لبونابرت لو لم يقم

بوجه عدو لا يقاوم ولا يرد بعد حصار عكا بشهرين ونصف . وهو ان وباء الطاعون وقع وانتشر في معسكر الفرنسيين انتشاراً هائلا ، واشتدت وطأته الى ان كان يموت في اليوم الواحد من خمسين الى ستين جندياً ، وزاد موقف المحاصرين حراجة مواصلة اسقاط القنابل النارية عليهم من مراكب الدول الثلاث وتوارد عسكر الدولة عليهم وانقطاع الذخيرة والمدد من فرنسا، عند ذلك امر بونابرت عسكره برفع الحصار عن عكا والرحيل الى مصر وهكذا كان .

الكومودور سميث والامير

صدفة موفقة

لما عاد الفرنسيون ادراجهم عن عكا تنفس الجزار الصعداء وصار يتحين الفرص ليصب جام غضبه على الامير بشير تشفياً وانتقاماً عما حواه ذلك الجواب من المغامز . ولم تخف مقاصده على الامير ورأى ان يحتاط للامر بان كتب الى القبطان سميث جواباً لطيفاً لانه من حسن طالعه، بعد انهاء حصار عكا ، ورد اليه كتاب من القبطان المذكور يحمله ذلك الرجل الماروني ناقل الذخيرة الى المعسكر الفرنسي . واليك تكملة ما دونه بهذا الشأن الكولونيل شرشل في الصفحة المذكورة من كتابه قال : « استدعى الكومودور سميث ناقل الرسالة الذي كان اودع في السجن واخذ يلقي عليه السؤالات الكثيرة عن اقوال الناس

وشعورهم العام في جبل لبنان بشأن الامير بشير واخلاقه وطرائقه وشعبيته . وكانت نتيجة الاجوبة المعطاة في ذاك الفحص المدقق ان دفعت القبطان الانكليزي الى فتح العلاقات مع الامير ، فكتب اليه رسالة سلمها الى الرجل ليوصلها الى الامير في بيت الدين . ومما جاء في هذه الرسالة ان الكومودور طلب من الامير ان يرسل اليه معتمداً من قبله لكي يوقفه القبطان على امور خطيرة تجول في خاطره . فاسرع الامير بارسال الجواب وفيه يبادل الامير الكومودور عهود الولاء والصداقة وكان هذا يحن اليها. ولم يلبث ان الحق الامير كتابه بمعتمده الشيخ حسون ورد ابن شيخ عقل الدروز وهو مشهور بنباهته فاكرمه سميث غاية الاكرام وافهمه ان في عزمه ازالة ما كان بين الامير والجزار من الخلاف والضغائن وارسل معه هدية نفيسة للامير .

ثم ان القبطان الانكليزي توصلا الى توطيد عهود الولاء بينه وبين الامير بشير بعث ابن اخته، وهو احد ضباط الاسطول البريطاني، ليقضي مدة لدى الامير بشير انتجاعاً للعافية لانه كان اصيب بجراح بليغة في محاربته ضد الافرنسيين ، وقد ابدى الامير بشير في سبيل خدمته وراحته اجلى واسنى مظاهر الكرم والغيرة والعناية فصمم النية على خدمته الى النهاية مما ضاعف اعتبار خاله للامير .

زيارة الكومودور سميث للامير

لم يطل الزمان حتى تسنى لهذين الزعيمين ان يتقابلا وتتم

المفاهمة بينهما ذلك ان الكومودور بينما كان يروح النفس بعد مشقات دفاعه عن عكا قدم الى بيروت ورغب في زيارة الامير بشير تلبية لدعوة كان هذا سبق ووجهها اليه في هاتيك الغضون. وكان في نية الكومودور ان يتخذها وسيلة لارواء غليل نفسه من التعرف على الامير الذي كانت شهرته وسطوته جعلتا له مقاماً عالياً منظوراً اليه بعين الاكبار والاعجاب، الى انه حزراً من اثارة الهواجس، واشعال نيران حسد الاتراك من جراء مظاهرات لابد ان ترافق زيارة رسمية الى قصر بيت الدين، سأل الكومودور الامير ان يعين مكاناً آخر للزيارة غير بعيد عن شاطىء البحر، فوقع اختيار الامير على قرية عين عنوب، وهي على نصف المسافة بين بيروت وبيت الدين، وفيها قصر فخم للامراء بيت ارسلان الدروز يصلح لاقامة الحفلات ومظاهر الافراح بما يحويه من القاعات الفسيحة وانابيب المياه المتصاعدة (النوافير).

وفي اليوم الاول من حزيران سنة ١٧٩١ سار الزعيمان ترافق كل منهما حاشيته بمظهرها الخاص المتفق مع ذوق واصطلاح كل من الفريقين. فبينما كان الامير نازلا من قصره تواكبه بطانة كثيرة العدد من الامراء والمشايخ مرتدين الملابس الزاهية، وحواليهم رجالهم واتباعهم لابسون حلل الاعياد الحافلة تلمع في ايديهم السيوف واليطاقانات ويملأون الجو من هتافات الابتهاج والاغاني الحربية والاهازيج ومن طلق العيارات النارية المتواصلة، كان الكومودور في ذاك الحين يواصل سيره صامتاً صاعداً ادراج الدروب الجبلية

مرتدياً بزته المألوفة يرافقه ضابطان ام ثلاثة تتبعهم فرقة من رجال البحرية وقفل طويل من البغال الحاملة مائة قفة من الارز بمثابة هدية جزيلة النفع للامير الذي بدوره كان اعد لضيفه فرسين من اكرم الخيل اصلا .

وكان بمعية الكومودور مائتان من جنوده وقد التقاه الامير باطلاق البارود واحتفل به احتفالا عظيماً وقدم له هدايا نفيسة ، وقد ختم الكولونيل شرشل روايته لتلك الزيارة بالملاحظة التالية : « ليس هنا مجال للاسهاب في وصف ما بدا من اشكال التكريم ولا الى اي حد بلغت ضروب الحفاوة في ذلك الحدث الذي قد يكون الاول من نوعه منذ عهد الصليبيين حين كان رؤساء الافرنج والعرب يعملون في تبادل كلام المجاملة ساعة على محو آثار تركها عداء سنوات ، وحسب القول ان تلك الزيارة في عين عنوب تركت آثاراً طيبة من الارتياح والرضى في نفس كل من الفريقين ، وقد ابدى الكومودور سميث نحو الامير في ذلك الحين عطفاً واعتباراً عظيمين ظهرا باجمل آيات الاخلاص والتعلق ولم يفتر الامير عن مقابلة كرم اخلاق صديقه البريطاني بالشكر والاعجاب » . (شرشل ٣ : ١٩٢) ولم يلبث ان تحقق الامير صدق واخلاص الكومودور .

رسالة الكومودور سميث الى الامير

من سميث سر عسكر السلطان لوكا سلطان بلاد الانكليز ونائب

حضرة السلطان سليم الى الاخ الحبيب الكلي الشرف والاحترام الامير بشير الشهابي زاد مجده .

اما بعد اني لما وصلت الى مدينة بيروت فسألت عن احوالك يا اخي وصديقي المأنور فبلغني ما توقع لك من احمد باشا الجزار ، وانه قد نصب مكانك اولاد الامير يوسف وطردك من الولاية التي انعمت بها عليك الدولة العثمانية . فحالا بادرت بالتوجه الى غزه لمواجهة سعادة اخينا الصدر الاعظم قائمقام الدولة العلية لنظام العالم . فان شاءالله عن قريب يصلك مني اعلام الذي يسرك سروراً زايداً . ولا تظن يا اخي الحبيب ان انقطاعي عنك في الاعلام الا لزود الحروب والاتعاب التي حصلت لي في ابو قير واسكندرية من الفرنسويين المحتلين مصر وذلك لعدم اسعاف جزار باشا لي . لانه قد عاهدني بانه يمشي نحوي بالاسعاف في المراكب والذخائر والجبخانات وقد نكس بعهده ووعده . والآن قد صار عدو الدولة العثمانية لان العهود التي ما بيننا ان عدو الدولة يكون عدو الدولتين وصديقها كذلك . وانت يا اخي كن براحة بال ان شاء الله عن قريب تحصل على كل ما ترغبه . وقد تركت لك مركباً من مراكبي في بيروت لاجل ما يلزمك من الجباخانات وغيرها . واني اعلم ان بعض الوشاة الموجودين في دولتك يوصلوا صورة كتابي هذا الى الجزار باشا . ولكن فليعلم ان بحال وصولها اليه يحل به الندم وقد حررت لك هذه من ظهر الدامور في اليوم الخامس من كانون الاول ۱۷۹۹ ودائماً اخبرني عنك والسلام .

سفر الامير الى مصر لاول مرة

وعد الكومودور سميث ان يستميل الجزار الى صديقه الجديد الامير بشير الا انه لم ينجح ، وقد حضر حينئذ من الاستانة الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا ومر في البقاع على رأس الجيش العثماني الذي كان زاحفاً الى مصر لمحاربة الفرنسيين . فنال الامير بشير رضاه وانعم عليه الصدر الاعظم بخلع الولاية على لبنان وبعلبك والبقاع وبلاد المتاولة ووادي التيم مصرحاً ان ليس لولاة عكا او دمشق او طرابلس ادنى تسلط على الامير وخوله حق ارسال الاموال الاميرية رأساً الى الاستانة دون ان يكون له علاقة مع الولاة المذكورين على مثل ما كانت حالة لبنان المستقل على عهد الامراء المعنيين . فكادت تنشق نفس الجزار حنقاً الا انه اركن الى السكينة مدة واخفى غيظه وحقده . ولكن ما لبث ان سافر الصدر الاعظم الى مصر واذا بالجزار يهب الى اثارة الخواطر على الامير بشير موعزاً الى الامراء مزاحميه واخصامه ان يهاجموه ، وامدهم بالذخيرة والمدد والعساكر فحاربوه واحرجوا موقفه حتى اضطر الى الذهاب الى الكوره ثم الهرمل قاصداً التوجه الى حوران والبقاء هنالك الى ان تمر الزوبعة . ولما علم بذلك الكومودور سميث ارسل اليه رسولا يعلمه بانه جهز له مركباً في طرابلس وهو يطلب اليه الحضور والسفر الى مصر لمقابلة الصدر الاعظم في العريش . فلم يتأخر الامير بل ركب البحر في اواخر سنة ١٧٩٩ مع مدبره سلوم

الدحداح وعشرين نفراً من حاشيته فاستقبله الصدر الاعظم بكل ترحاب واجتمع معه ومع الاميرال سميث اربعة ايام، وعرض عليه الصدر الاعظم ان يصحبه بعشرة آلاف جندي لقتال الجزار، فامتنع الامير عن القبول حذراً من اهوال الحرب الاهلية في لبنان، فوعده الصدر الاعظم انه بعد طرد الفرنسيين من مصر يعود وينقذ الامير ولبنان من مظالم الجزار.

على اثر ذلك انتقل الامير الى قبرص مع الاسطول الانكليزي وهناك فوجىء بخبر اخفاق الصدر الاعظم بمهمته فعاد الى لبنان واستلم الحكم سنة ١٨٠٠، ولم ينقطع احمد الجزار عما الفه من اشعال نار الفتنة عندما كان يتيسر له ذلك، ولم يزل الى ان مات سنة ١٨٠٤ فارتاحت البلاد وعز شأن الامير كما تقدم القول:

ومما انشد عندما بلغ القوم موت الجزار الابيات التالية من قصيدة منسوبة الى المعلم الياس اده:

وافى السرور وصح ترجيح الامل
بهلاك غاشم لا يعادله مثل
احمد ولكن ليس يحمد في الورى
مغضوب في ثوب المساوىء قد دخل
بحياته كان الغلا ثم الوبا
والقحط والجور الذي لا يحتمل
لله درك يا منون وقد بدت

منك الحياة وطاب صلحك واعتدل

فاذا الانام وارخوه بمقصد

هلك الشقي والى جهنم قد رحل

الفصل الرابع

الدور الثاني : ١٧٠٧ ـ ١٨٣٢

دور السكينة والعمران والسؤدد

لقد تسنى للامير بشير بعد جهود جبارة ان ينصرف في هذا الدور الثاني الى جمع كلمة ابناء لبنان على اختلاف مذاهبهم واحزابهم عاملا على تعمير البلاد وتعزيزها بمآثر غراء سنأتي على ذكر بعضها . ولبنان في تلك الحقبة راتع في حالة الطمأنينة والهناء ولو تخللها بعض فتن لم يلبث الامير ان اطفأ نارها وعادت المياه الى صافي مجاريها ، فتجلت من ثم مواهبه السامية الفريدة بابهى مجاريها فصفا له الزمان ومالت نفسه الى السكينة .

فاستتب الامن في هذا العهد الثاني وتأمنت الطرقات فسهلت المواصلات . وقد بذل المساعي المتواصلة لتنشيط الزراعة والصناعة الوطنية والتجارة والعلوم فتحسنت الموارد وذاق ابن لبنان حلاوة العيش في لبنان . والامر النادر بل الفريد هو انه لم يسمع قط انه وقعت

في ايامه جريمة او حدث تعد ما وبقي المجرم مختفياً والمجرم غير منزل به العقاب العادل ولو ان الجاني توفق فوراً وتوارى زمناً طويلا في جبال حوران او وراء البحار .

واخبار هذا الدور الثاني ترى بعضها مدوناً في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

الفصل الخامس

الدور الثالث من عهد حكم الامير ۱۸۳۲ ـ ۱۸٤۰

الحكومة المصرية في سوريا ولبنان

الامير بشير ومحمد علي

قلنا ان نفس الامير مالت الى السكينة بعد هاتيك العواصف الا انه كأن الزمان كتب لهذا الرجل العظيم ان لا يطول عهد هنائه بل ان يعود الى ما كان عليه من مقاساة الاهوال وامتطاء الخيل في ساحة القتال ، لانه في خلال السنة ۱۸۳۲ قدم ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا حاكم مصر على رأس حملة كبيرة منظمة واحتل فلسطين وسوريا ولبنان وحكمها ثماني سنوات.. هنا نرى القارىء يأخذه العجب لكلمة « احتل لبنان وحكمه » لانه يعرف حق المعرفة ان لبنان منذ القدم لم

يحتله غاز ولا حكمه ملك غريب قط ، ولو انه احتل ما جاوره من البلدان السورية وغيرها وحكمها ادهاراً ، الا ان عجب القارىء يزول متى عرف ان الاحتلال المصري للبنان لم يتم الا بموجب رضى الامير واتفاق سابق عقده مع محمد علي حاكم مصر اثناء سفر الامير الثاني الى مصر سنة ١٨٢٢ .

رحلة الامير الثانية الى مصر

كان ذلك دفعاً للاذى عن نفسه وعن لبنان ، كما كان سبب رحلته الاولى . فانه قد سبق القول عن دأب ولاة الاتراك في دس الدسائس واثارة الفتن ضد حكام لبنان ليحرجوا موقفهم ويفقدوا لبنان استقلاله الذي كان قذى في عيني دولتهم ، وزادوا في ذلك اضعافاً ضد الامير بشير حسداً وحنقاً لما رأوا من علو مكانته ونجاحه المطرد ، ولما يخشونه من تحقيقه حلماً قديماً كاد يصح على يد فخر الدين الكبير ، اعني به استقلال لبنان المطلق عن الدولة ، اذ لم يكن يخفى عليهم ما كانت عليه تلك الدولة من الانحطاط وما كان فيها من الاضطراب في ذلك العهد ولا سيما بعد الاقرار الذي صرح به واعلنه الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا من امتداد سلطة الامير الى جبل لبنان وجواره كما تقدم ومن استقلاله التام عن الولاة الاتراك في عكا وصيدا ودمشق الخ .. واعطائه فرماناً في ذلك اقامهم واقعدهم غضباً .

عامية انطلياس ولحفد

ومما نكبوه به تدبيرهم لثورتين هائلتين ضده عرفت باسم عامية انطلياس ١٨٢٠ وعامية لحفد بعدها بقليل ادتا الى رحيله الى حوران ثم الى مصر وكانت المكيدة واحدة في الثورتين . فان عبد الله باشا الذي خلف سليمان باشا صديق الامير بشير في ولاية عكا كان فتى غراً كثير الطموح دأبه جمع المال فاخذ يلقي الفساد بين اللبنانيين ويطلب من الامير بشير مالا اميرياً باهظاً زائداً على ما كان المعتاد . فامتنع الامير عن جمعه رفقاً بابناء البلاد فارسل الباشا عسكراً جراراً لجمع الاموال بالقوة وعزل الامير جوراً واستبداله بمزاحميه من الامراء الشهابيين . فدفعاً لاضرار افظع امر الامير بجمع المال فهاج الشعب ، وكان عبدالله باشا يخابر زعماء الشعب سراً بان لا يدفعوا الا المال المعتاد وكان علناً يلح على الامير بجمعه مع الزيادة . فعرف الامير بهذه الحيلة فابتدأت الثورة على الامير في المتن وامتدت الى كسروان واجتمع في انطلياس نحو ٦٠٠٠ رجل اقاموا عليهم رئيساً الشيخ فضل البدوي الخازن واحرجوا موقف الامير . وزاد موقفه حرجاً الاضطراب الذي اثاره قتل الامير حسن الملقب بالاسلامبولي عمه وابيه ، وارتداده من النصرانية الى الاسلام ، كما سنذكره عن قريب بالتفصيل .

فاعتزل الامير الحكم والبس عبدالله باشا الوالي الخلعة اثنين من مزاحمي الامير بشير واصحبهما بسبعمائة مقاتل . فتخلى الناس عن الامير

ما عدا الامراء اللمعيين الذين اقسموا انهم لا يقبلون والياً غيره .



الامير حيدر اللمعي اول حاكم للمسيحيين
في عهد القائمقاميتين

فتوجه الامير بشير الى حوران ومكث مدة الى ان هاج الاهلون على الحاكمين الجديدين وعاد الامير بشير الى الحكم ولم يعد بينه وبين عبدالله باشا والي عكا عداوة او بغضاء .

الا انه لم يطل الزمن حتى عاد اصحاب الدسائس من مزاحمي الامير الى اثارة الفتن ضده بمساعدة والي عكا ، على شكل ما كان سبباً لعامية انطلياس كما تقدم ، وتوصلوا الى اثارة عامية اخرى تشبهها في لحفد من اعمال جبيل . الا ان الامير هذه المرة تغلب عليها وقمعها واوقع العقاب في بعض الثوار . وعفا عمن استحقوا العفو ، واستلم الحكم معززاً .

مقتل الامير حسن لعمه ولوالده

ورد خبر هذه الحادثة الشنعاء في كتاب « اخبار الاعيان » صفحة ٤٩٠ وخلاصتها ان الامير حسن شهاب الملقب بالاسلامبولي (او السطمبولي) طلب التزوج من ابنة عمه الكبرى ثم الصغرى ولم يلب طلبه، فشكا امره الى الامير بشير ولم ير هذا ان يتدخل في القضية تاركاً الحرية للابنتين ولوالدهما، وهذا ما جاء في الكتاب المذكور:

« فلما انقطع رجاؤه اضمر (اي الامير حسن) قتل عمه واظهر ما نواه الى بعض اصحابه من بني الغريب الدروز فرغبوه بذلك ووعدوه بانهم يأخذون خاطر الشيخ بشير جنبلاط وانهم يكونون خادمين له اينما كان وكان يسير برأيهم كثيراً. فاشاروا عليه انه قبل اتمام ما ينبغي يجب ان يصير مسلماً فارتضى فاحضروا له مسلماً ختنه فصار ممقوتاً عند الامير واقاربه ... اما الامير حسن فاقنعه بني الغريب اصحابه انه متى قتل عمه يقيه الشيخ بشير من الضرر وبسبب اسلامه يتولى البلاد. ثم قصد القرية التي كان فيها عمه الذي تلقاه بالترحاب ففاجأه الامير حسن باطلاق الرصاص عليه ثم هجم عليه هو ورجاله واماتوه ضرباً بالسيوف، فلما شاهد ذلك الامير محمود اخوه والد حسن استل خنجراً ليضرب به، فاطلق رجال الامير حسن الرصاص عليه واماتوه واماتوا عبده لانه حامى عنه. ثم فر الامير حسن فوراً الى دمشق فارسل الامير رجالا في طلبه ومثله فعل سليمان باشا والي عكا الذي اخبر بما كان.

«اما الامير حسن فنزل على رجل يسمى محمد آغا الموره لي وقص عليه الخبر وانه لم يقتل عمه واباه الا لانهما مرتدين الى النصرانية. فعرض امره على جماعة من العلماء فافتوا له بالعفو. وكان يسير برأي علماء الاسلام يوضح لهم ارتداد اقاربه الامراء وان الامير بشير والي جبل لبنان نصراني مثلهم وعرض امره الى وزير دمشق فسأل العلماء ما الحكم بذلك فاجابوه لا يجوز قصاص هذا الامير لانه مسلم قتل مرتدين».

ثم انه بعد مدة بناء على الحاج عبدالله باشا والي عكا ارسل اليها ومنها ارسله الوالي الى استمبول واودع هناك هو ورفاقه في الترسخانة حيث مكثوا سنة وعشرة اشهر اطلق بعدها سراحه وعاد الى لبنان حائزاً على رضا الدولة فاعطاه الامير بشير الامان».

(انظر اخبار الاعيان صفحة ٥١٣)

تعجيل السفر الى مصر

قمع الامير عامية انطلياس ورجع منصوراً الى الحكم الى انه وافق رجوعه الى الجبل عصيان عبدالله باشا والي عكا على السلطان وتزويره فرماناً يوليه على الشام، فانخدع الامير بشير وعاونه على محاربة والي الشام وتغلب عليه بفضل الجنود اللبنانيين الذين كسروا الجيوش الشامية في المزّه، لكن تزوير عبدالله باشا انكشف سريعاً وارسلت

الدولة جيشاً للفتك به وبالامير الذي كان نصيره. فخلع الامير بشير نفسه وسلم الحكم الى الامير عباس اسعد شهاب ورأى من الحكمة ان يبتعد عن لبنان لحين هدوء الزوبعة، فيسافر الى القطر المصري في عدد وافر من اعوانه وحاشيته، ذلك لانه لم ير بفطنته حليفاً اقرب اليه وافيد من محمد علي باشا حاكم مصر يساعده على دفع التعدي عن لبنان من قبل قوة الاتراك الغاشمة. ولم يلتجيء الى دول اوربا لان فرنسا الصديقة والحامية التقليدية كانت شواغلها الداخلية لا تمكنها من المساعدة ومثلها بقية دول اوربا. فسافر الامير الى مصر سنة ١٨٢٢ ومعه ولداه الاميران خليل وامين ونحو مائة رجل من اعوانه.

بعد ان خلع نفسه من الحكم وسلمه الى الامير عباس، ولدى بلوغه مصر احسن محمد علي استقباله وقال له: «انه لم يدخل على مصر اعز منك» (تاريخ الاعيان ص ٥٣٦) وكان لهما محادثات طويلة تم فيها الاتفاق على ما كان يتمناه كل منهما وبقي الامر سرياً الى حينه. ولما رضيت الدولة على الامير بشير بواسطة محمد علي عاد مظفراً الى لبنان واستلم الحكم ولم يعد يعتزله الا سنة ١٨٤٠ كما سيجيء بيانه.

لماذا رضي الامير

بقدوم الدولة المصرية الى لبنان وسوريا؟

ان حاكم مصر هذا لعلمه ما كانت عليه تركيا من الضعف

والاختلال في ذلك العهد اقدم على تنفيذ خطة كان رسمها منذ سنتين وهي الاستيلاء على فلسطين وسوريا ووضع يده على خيراتها، ولا سيما ما كانت مصر في حاجة اليه، واستخدام رجالها في جيشه . فتذرع اذ ذاك باسباب عرضت له هي حصوله على المكافأة التي لم تقدمها له الدولة لقاء حروبه وخدمه في سبيلها كحرب الوهابيين وحرب المورا . ثم رفض والي صيدا وفاء ديونه لحاكم مصر ورفض تسليمه الفلاحين المصريين اللاجئين اليه من عسف جباة الضرائب المصرية على ما جاء في تاريخ حروب ابراهيم باشا لسليمان ابي عزالدين (ص ٤٦) ومختصر تاريخ سوريا تأليف هـ. لامنس (ص ١٥٢) .

وكان محمد علي متحققاً انه لن يتم له شيء من ذلك ما لم يكن الامير بشير حليفه وعضده ويكون لبنان حصناً منيعاً لحملته ومركزاً لقواته . فحدّث الامير بذلك ووعده الامير خيراً بشرط ان يتعهد محمد علي بدوره ان يكون له عوناً على تركيا للتخلص منها تماماً ويبقى لبنان حراً بل يضحي استقلاله النوعي مطلقاً كاملا فتعهد بهذا محمد علي وارسل حملته على سوريا تحت قيادة ولده ابراهيم باشا كما تقدم يعاونه فيها اثنان من الضباط الفرنسيين الخبراء . وقد جرّ انضمام اللبنانيين ومناصرتهم له خضوع الاقطار السورية كلها بوقت وجيز وجعل الامير بشير في زحله المدينة اللبنانية الشهيرة مستودعاً للزخائر والاسلحة .

وبعد هذا النجاح السريع رأى ابراهيم باشا ان يتوغل في الولايات التركية في الاناضول وقد تم له ذلك وانتصر على القواد الاتراك

الذين هرعوا لمقاومته ، وفتح ايقونية وكوتاهيه ، وبلغ الى ضواحي بورصه على مسافة غير بعيدة من اسطنبول عاصمة الاتراك ، واللبنانيون ينصرونه في اكثر مواقعه وله ملء الثقة في بسالتهم وامانتهم ، ولذلك اقام ابراهيم باشا الامير بشير محافظاً على المدن على ان يعين متسلميها من اولاده واحفاده وممن يرى فيهم الاهلية ، واليه كان يعهد اخماد الثورات العديدة التي كانت تنشب في الاقطار الخاضعة له حديثاً كصيدا ونابلس والقدس الشريف وطرابلس وعكا واللاذقية وجبال العلويين اذ لم يكن يجد غيره كفوءاً لهذه المهمات العسيرة وكان الجنود اللبنانيون يعودون من هذه المواقع مكللين بالانتصار .

غير ان اقتراب ابراهيم باشا من اسطنبول اوقع الرعب في العاصمة التركية وخيف مهاجمته اياها فقامت روسيا تتدخل في الامر وفعلت مثلها انكلترا ثم فرنسا والنمسا وبروسيا . وبعد مداولات عديدة عقدت معاهدة في لندن بغير معرفة فرنسا في ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ اتفقت فيها روسيا وانكلترا والنمسا وبروسيا مع السلطان العثماني على ايقاف ابراهيم باشا واكراهه على ارجاع فتوحاته في مملكة تركيا اليها وسحب جنوده الى بلادهم بفرصة عشرة ايام .

وكانت فرنسا ترعى مصلحة محمد علي باشا وتميل الى ابقاء سوريا تحت سيادته اما انكلترا فكانت تقاوم هذه الفكرة خوفاً من ان يفتح لفرنسا طريق الهند . فابى محمد علي الرضوخ لقرار الدول واجاب على

انذار السلطان : « لا ارد الا للسيف ما اخذته بالسيف » إلا ان آماله لم تتحقق لما كان من انفصال اللبنانيين عنه وثورتهم عليه فنفذت الدول قرارها تماماً بواسطة ومساعدة اللبنانيين الذين صح فيهم ما سبق وصرح به السيد بازيلي قنصل روسيا في بيروت في تقرير ارسله الى حكومته في هاتيك الاثناء قال ما تعريبه : « كما ان انضمام اللبنانيين الى جيش ابراهيم باشا في سنة ١٨٣٢ قد جرّ معه خضوع كل سوريا فلا يبعد ان ثورتهم اليوم ستوءول الى طرد المصريين عن البلاد » (المحررات السياسية مجلد ١ : ٤) وقال كدلافان : « ان وجود بشير في معسكر ابراهيم معناه سوريا بيد مصر » .

ظلت الحكومة المصرية ثماني سنوات في لبنان وسوريا وكانت يداً واحدة مع الامير بشير حسب المعاهدة السابق ذكرها. وقد اهتم ابراهيم باشا باجراء اصلاحات عديدة في شؤون لبنان التجارية والعمرانية ، ومثلها في سوريا التي وضع لها نظاماً جديداً منطبقاً على اتجاهات التمدن والتساهل العصريين ، معلناً فيها المساواة بين الرعايا على اختلاف مذاهبهم غير ناظر في تقليد الوظائف الا الى الكفاءة الشخصية وله في هذا الصدد اخبار لطيفة مما استحق ثناء العقلاء وبالطبع اغضب عليه الجهلاء الذين لا يقدرون الامور حق قدرها (انظر تاريخ لبنان وسوريا تأليف ف . توتل صفحة ١٤٩ وكتاب صديقة ومحامية تأليف ب . غالب المكرزل صفحة ١٧٦ وعنهما ننقل الحادثين التاليين) .

تقدم نحوي يا بك

تم هذا الحادث في احدى مدن سوريا وهذا خبره : «اليك حادثاً يبين التغيير الاجتماعي الذي اجراه ابراهيم بك في البلاد السورية . كان حنا بك البحري المسيحي موظفاً في ادارة المالية وكان على علو مكانته لا ينال من زملائه المسلمين الاكرام اللائق بوظيفته فشكا امره الى ابراهيم باشا .

وحدث ان اجتمع يوماً كبار الموظفين من المسلمين وكان بينهم حنا بك فدخل عليهم ابراهيم باشا ووقف الجميع اجلالا له فقال : «يا بك تقدم نحوي » ولم يذكر اسم البك .

فلم يخطر لبال احد من الحاضرين ان الباشا يقصد البحري دون غيره . فتقدم موظف آخر اسمه حافظ بك . فقال له ابراهيم باشا : « اني انادي بحري بك » فرجع حافظ الى مكانه وتقدم بحري بك . فقال له الباشا : « تفضل» واجلسه بالقرب منه . اما سائر رجال المجلس فظلوا واقفين الى ان قال لهم الباشا : « اقعدوا » فقعدوا . فصار رجال الحكومة من بعد ذلك الحادث يعاملون حنا بك المعاملة اللائقة بمقامه»

ولا يخفى ما اظهره براهيم باشا في تصرفه هذا من حسن الذوق والدراية وحب المساواة ومثله في الحادث التالي .

صاحبة الازار الاخضر

« ذكر لنا معاصر لتلك الايام (ايام احتلال المصريين سوريا

١٨٣٢ ـ ١٨٤٠) انه يوم كان ابراهيم باشا في الشام سمع ضوضاء امام دار الحكومة فاطل من الشرفة ليرى ما السبب ، فاذا بقوم من المسلمين يشتمون امرأة مسيحية مئتزرة بازار اخضر (وكان يوسف باشا والي دمشق اوجب منذ عهد بعيد على المسيحيين لبس الثياب المعتمة كما سترى في اول الفصل الثالث من الجزء الثالث) وكاد الرعاع ينهالون عليها بالضرب لو لم يوقفهم ابراهيم باشا . ولما استفهمهم عن سبب شتمهم وتهجمهم قالوا انها لابسة ازاراً اخضراً فغضب وامرهم ان يتفرقوا وقال لكبيرهم : ما هذه الجهالة ؟ اليس كل انسان حراً ان يلبس ما يريد ؟ دعوا المرأة وشأنها وحذار ان تعيدوا مثل هذه الاعمال . فانصرف الناس غير راضين عن كفر ابراهيم باشا » .

وعلى هذا الشكل كان ابراهيم باشا يستعمل الحكمة والتوءدة لاجل تنفيذ النظام الجديد في سوريا وفلسطين الذي لم يحتج الى وضعه في لبنان حيث كانت المساواة سائدة بين ابناء الاديان المختلفة والقانون لا يفضل او يميز فريقاً او شخصاً على آخر بسبب مذهبه بل كان الاعتماد على الكفاءة الشخصية لا غير كما هو الواجب .

اسباب الثورة على الحكومة المصرية

واما الذي نفر الناس منه في لبنان فهو ارهاقهم بالضرائب وشدته في جمع الأموال الاميرية وابرامهم بالسخرة لحفر معادن الفحم في قرنايل

والحديد في مرجبا المتن ونقلها الى بيروت ، ثم حجزه الصابون وجمعه السلاح وتعميمه الخدمة العسكرية واكراهه الجنود اللبنانيين على الذهاب خارج لبنان كالاناضول ومصر والسودان ،وفي هذا الصدد يقول الاستاذ يوسف السودا في كتابه النفيس « في سبيل لبنان » :

« ان ابراهيم باشا لما استتب له الامر في سوريا لم يحسن معاملة اللبنانيين كما كانوا يأملون ، ولعله خفي عليه صحة موقفهم من انهم شعب حي ما حاربوا معه جيوش الدولة على سبيل الطاعة العمياء للامير بشير بل سعياً الى غاية وضعوها نصب اعينهم الا وهي نيل الحرية المطلقة ، ولما رأوا ان آمالهم بالدولة المصرية لم تتحقق وانهم ما خرجوا من سيادة الاتراك الا ليقعوا تحت سيادة اخرى اجنبية هاجت في صدورهم حمية الاباء والجدود فهبوا غاضبين لحريتهم ثائرين لشهدائهم الذين قتلوا عبثاً في نجدتهم » .

وهذا الاستياء العام لم يخف على عمال دولة الاتراك فعرفوا كيف يستغلونه ، واخذوا يثيرون الخواطر على الحكومة المصرية وعلى الامير بشير حليفها بشتى الوعود ومثلهم فعلت دولة الانكليز بواسطة معتمدها المستر رشارد وود مستشار سفارتها في اسطنبول ، فاوفدته الى لبنان وكان عارفاً باطوار اللبنانيين وقد اتقن لغتهم على يد الطيب الاثر الخوري ارسانيوس الفاخوري من غزير ، فاستكتبهم عريضة يلتمسون فيها من الدولة العثمانية والانكليزية والنمسوية والفرنسوية انقاذهم من جور الحكومة المصرية فكتبوا له ما اراد ووعدهم بسرعة

الانجاد . وقد انفق على هذه الدعاية ٤٥ الف ليرة (كتاب لبنان تأليف ي. داغر صفحة ٢٧٠) فزاد اهتياج الخواطر وبدأت الثورات في انحاء متعددة والايقاع في جنود الحكومة ، وقد انتخب الثوار رئيساً عليهم بمثابة قائد اعلى الشيخ فرنسيس ابا نادر الخازن من غوسطا كسروان ، واشتهر من قواده ابو سمرا غانم من بكاسين ويوسف الشنتيري من بكفيا والثلاثة من الموارنة واحمد داغر المتوالي وانضم اليهم معظم الامراء والمشايخ والاهلين ، واما الشيخ بطرس كرم وابنه الفتى يوسف بك كرم فرأيا ان يقفا على الحياد لانهما لم يريدا الاشتراك مع الثورة ضد الحكومة المصرية التي كانت فرنسا تعضدها ولا سيما ان النافخ في بوقها عمال الانكليز . فكانت الحرب بين الفريقين عند الابتداء سجالا الا ان الحكومة تمكنت اخيراً من التغلب على الثوار في المتن والقت القبض على سبعين رجلا ونفتهم الى سنار في السودان ، وكان بينهم الامير حيدر بللمع الذي صار فيما بعد قائمقام النصارى في بكفيا ويوسف الشنتيري ومدبر الامير حيدر طنوس فرج صفير الذي تمكن من الفرار الى قبرص ومثله فعل الشيخ فرنسيس الخازن زعيم الثورة.

وبينما كادت تبرد الهمم عند الثوار لعدم وجود الاسلحة والزخائر الحربية اذا باسطول دول الحلفاء يظهر تجاه الشواطىء اللبنانية مؤلفاً من احدى وثلاثين قطعة ٢٥ منها انكليزية و٥ نمساوية وبارجة واحدة تركية متغطلة كلها بامرة السر نابيير الانكليزي فضربت

البوارج المدن الساحلية في لبنان وسوريا وارسل القائد بياناً الى اللبنانيين يدعوهم الى التعاون معه على الدولة المصرية .

ثم ما لبث الاسطول ان انزل قوة عسكرية في جونيه ميناء كسروان في المحلة المعروفة باسم الباطية وقدمت للاهلين الذين تقاطروا اليها السلاح والاموال والذخائر وعهدت الى فرنسيس الخازن توزيعها وكان الاسطول احضره معه مكرماً من قبرس .

فلا غرو ان ارتاحت انحاء لبنان لهذا الحادث واشتدت غزائم الثوار وعادوا الى عقد الاجتماعات في صنوبر بيروت وتأليف الفرق ، فاضطر ابراهيم باشا الى سحب جيوشه من السواحل للاعتصام في الجبال وهناك توالت عليه الانكسارات منها في ميروبا ووطا الجوز وبسكنتا وبحرصاف وغيرها . واشتدت على رجاله المطاردة من كل النواحي فما لبثوا ان انهزموا من لبنان وسوريا وتم جلاؤهم الى مصر وقد قاسوا على الطريق اهوالا ومشقات لا توصف ومات منهم الوف على الطريق ناهيك عن الالوف التي سقطت في ساحات القتال طيلة ثماني سنوات . واعاد الانكليز الى لبنان الاشخاص المبعدين الى سنّار السودان .

كيف انتهى حكم الامير بشير

واليك ما جرى للامير بشير في هذه الظروف : ان المستر ريشار وود المذكور ارسل اليه ثاني يوم وصول العمارة كتاباً يعده فيه

بالمحافظة على استقلاله اذا تخلى عن محمد علي ومثله كتب الكومودور نابيير القائد الاعلى لاسطول الحلفاء والسر عسكر العثماني اي القائد الاعلى يطلبان منه المعاونة على المصريين والتسليم للدولة والانكليز ووعداه بانه اذا فعل الاول، قبل ثمانية ايام، يظل في ولايته وتظل الولاية لذريته من بعده . « فلم تسمح للامير نخوته اللبنانية بالتخلي عن حليفه ساعة الشدة . لا سيما وفرنسا تؤيده وعهد فرنسا مقدس في لبنان ففضّل الامير ان يحفظ عهوده حتى التضحية » (في سبيل لبنان للاستاذ السودا) في ذلك المأزق الحرج استشار الامير مدبريه الحالي والسابق فاشار بطرس كرامه بعدم التسليم وبالثبات مع المصريين لئلا يخربوا بيت الدين اما الشيخ منصور الدحداح فاشار بالانضمام الى الانكليز والدولة قائلا : « اذا هدمت بيت الدين فالبلاد تعيدها » ولما راى ان اولاده واحفاده كانوا مشتتين في الجيش المصري في كل البلاد وهذا الجيش يحتل ايضاً بيت الدين لم يمل الى العمل بالرأي الثاني . غير انه لما رأى رعاياه ينقلبون على المصريين وتحقق انهزام هؤلاء ايقن حراجة الموقف ودقته واخذ يحسب للطوارىء لا سيما ولم يرد عضد من فرنسا لسبب الانقلاب السياسي وتغيير الاحكام فيها بشأن القضية اللبنانية ـ المصرية حتى انتهى الامر بسقوط الوزارة الفرنسية التي كانت تريد ان تؤيد بالقوة محمد علي وحليفه الامير بشير وقيام وزارة اخرى مكانها لا تريد ذلك بل تريد السلم على اي حال كان . فبادر الامير عندئذ الى سحب اولاده واحفاده من الجيش المصري

والى ايداع بعض امواله وامتعته الثمينة في بعض الاديار وجزم التخلي والانسحاب والاستسلام للانكليز وفي ١٠ تشرين الاول سنة ١٨٤٠ نزل الى صيدا مع زوجته حسن جهان واولاده الثلاثة وحفيده الامير اسعد ومدبره بطرس كرامه وبعض الموالين له من اعيان البلاد ، فلاقاه والي صيدا بالاكرام والحفاوة ، وتوجه الى بيروت على باخرة انكليزية حربية للاستسلام للسلطة العليا كما تقدم، وكانت المهلة المضروبة قدفاتت فبلّغه اذ ذاك القائد العثماني الاعلى القرار السلطاني بابعاده عن لبنان وتعيين خلفه الامير بشير قاسم شهاب ، وخيره ان يختار محلا لاقامته فيما عدا سوريا وفلسطين ومصر وفرنسا فاختار جزيرة مالطه . فنقلته اليها بارجة انكليزية ومعه زوجته واولاده واحفاده الذين وافوه بعد حين الى حيث كان وعائلاتهم ومرشد عائلته الخوري اسطفان حبيش الماروني الغزيري وكاتبه المعلم بطرس كرامه والشيخ موسى الدحداح وسبعون شخصاً من حاشيته وخدمه واخذمعه خزينته واكثر نفائسه . ولما رسا المركب امام الجزيرة قابله الحاكم الانكليزي بترحاب وانزله قصراً يبعد ثلاثة اميال عن العاصمة .

اما ابراهيم باشا فبعد انكسار جنوده في بحرصاف كما تقدم «فر وحده ماراً بقرية صليما حيث طلب ماء تجرعه ومنها ذهب الى قرنايل... وبعد حين التقى بفلول جيشه واذ كان سائراً بهم الى بيت الدين التقى عند عين زحلتا ببحري بك وعلم منه بقيام الامير بشير فاسقط في يده وعاد بالعسكر واطلق الجنود بالنهب والقتل وسبي النساء في طريقهم

حتى بلغ معلقة زحله حيث وردت اوامر والده ان يعود بالجيش الى مصر بدون قتال فنهض به الى دمشق فغزه فوادي النيل » . (تاريخ الامير بشير الكبير لمعاصره الامير حيدر شهاب ـ مطبعة العلم ـ بيت شباب لبنان ١٩٣٣ ج ٢ ص ٩٤) .

سفر الامير بشير الى اسطنبول

بقي الامير بشير في مالطه احد عشر شهراً ارسل بعدها مدبره بطرس كرامه الى اسطنبول ليرى فيها مجاري الاحوال فهذا « لما بلغها وعلم ما ظهر وما بطن كتب اليه ملغزاً ان الصندوق في اسطمبول والمفتاح في لندره ، وحسن له وجوب الانتقال الى اسطنبول وجعلها دار اقامته فقام الامير بشير بمن معه من مالطه وسافر قاصداً اسطنبول ، وبعد ستة ايام وصلها فامر له الصدر الاعظم بدار للسكن وانزل حريمه في دار الياس حوا الحلبي الماروني موقتاً » . وفي اليوم الثالث دعاه رؤوف باشا الصدر الاعظم ورفعت باشا وزير الخارجية الى البـــاب العالي وارسل له الصدر الاعظم خيولا مزينة لركوبه مع اولاده (وقد اوردنا خبر هذه الزيارة في مقدمة هذا الكتاب وما كان من منع الصدر الاعظم رجال مجلسه عن الوقوف للامير ثم وقوفه له اولا ووقوفهم مثله) . ثم امر الصدر الاعظم بدار للامير في قرية ارناووط كوي الكائنة على خليج المدينة تبعد عنها ثلاثة اميال فانتقل اليها بمن

معه جميعاً ، وتقدم لزيارته بعض اكابر الدولة والعلماء والمشايخ والسفراء ورد زيارتهم وكان موقراً من الجميع ». (الغرر الحسان صفحة ١٠٥٠ - طبعة مصر) .



قبر الاميرة شمس زوجة الامير الاولى
في حديقة قصر بيت الدين

(من مجموعة مديرية الآثار)

الجزء الثالث

طرائف عن حياة الامير

في عهد استلامه الحكم ١٧٨٨ — ١٨٤٠

الفصل الاول

لا جريمة تختفي ولا مجرم يفلت

عدل الامير

ليس بالامر السهل وصف ما جرى من الاحداث التي فيها ظهرت عدالة الامير ، في فصل واحد لا في فصول ، الا ان خطرت في البال عبارة وجيزة نظنها تصور هذه الحقبة من الزمان تصويراً حقيقياً رائعاً ليس فيه شيء من المبالغة مطلقاً وهي التي صدرنا بها هذا الفصل « لا جريمة تختفي ولا مجرم يفلت » عبارة فريدة جريئة لم يخطر ببال احد من المؤرخين او الكتاب ايرادها عن احد من حكام العهد الغابر او الحاضر لانهم لم يروها تنطبق على احد قط وهيهات !

فكيف تم ذلك وما السر ؟

هو عدل الامير ، عدل يزينه حب شعبه وسهره عليه ، عدل

كان ولا يزال تضرب فيه الامثال لانه نصب ميزان العدالة وارهب اهل الفساد فانصف المظلوم وضرب على يد المعتدي دون شفقة ، حتى ولو كان اميراً خطيراً او شيخاً نبيلا او نسيباً عزيزاً ، واخباره من هذا القبيل اكثر من ان تحصى سنأتي على ذكر بعضها .

حكم الامير بشير كما وصفه الكولونيل شرشل

ان هذا الكولونل من اكبر رجال السياسة الانكليزية في القرن المنصرم وهو عم والد المستر شرشل الذي اشتهر اسمه في الحرب الكبرى الاخيرة . وقدصرف الكولونيل شرشل عشر سنين في لبنان ، اي من سنة ١٨٤٢ الى سنة ١٨٥٢ بوصفه رئيساً للبعثة الانكليزية في لبنان وسوريا ، ودون تقارير مسهبة عن لبنان في كتاب طبعه عند رجوعه الى بلاده قال ما تعريبه .

« ان استتباب الامن الذي اوجده الامير في الجبل وشعر الناس بمفاعيله قد ذهب مذهب المثل الى ايامنا ولم يقم بعد قط حاكم اكثر منه غيرة على ابناء شعبه مهتماً بمصالحهم بضبط وتدقيق ، ينصف المظلوم منهم ويمعن النظر في دعاويهم على حسب ما يمليه الانصاف و النزاهة ، فكان يفيق من الرقاد بصورة مطردة قبل بزوغ الفجر بساعتين ويجلس في ديوانه يدخن الغليون وحده الى الصباح ، فيحضر اذ ذاك امناؤه وكتبة اسراره فلا يلبث ان يقوم بقضاء المصالح وتصريف الاعمال

الحكومية . وكان اوضع المزارعين يدخل اليه بلا صعوبة ويشكو اليه ظلامته وكان الامير يوليها انتباهه واهتمامه الجديين دون ابطاء . ثم ان الذي اكتسب به ثقة الناس وزاد تعلقهم بشخصه هو ان اجراءاته واحكامه كانت تبلغ دائماً آخر حدود العدل لا اثر فيها للمحاباة او التحيز ولم يقع جرم الا ويد العدالة قابضة على الجاني ولا تبطىء .

الحوالة

« واما اصحاب الديون المخادعون الذين كانوا يحاولون التملص من وفاء ما عليهم فكان قد افرز لهم فرقة من عسكره تسمى فرقة الحوالة يرسل رجالها الى بيوتهم فينزلون فيها ويلازمونها موجبين عليهم تقديم ما طاب لهم من المأكل والمشرب والعلف لخيولهم وما اشبه، بحيث يضطر الغريم المماطل ان يعجل بوفاء ديونه للتخلص من هاتيك الاثقال التي لم يكن الامير ليعفي منها ابناء اسرته الشهابية انفسهم حتى ولو كان المدعي عليهم واحداً من اوضع ابناء الشعب . ثم ان اصحاب الجرائم الكبرى من قتل وتعد وغيرها فكان الامير يستعمل لاكتشاف مخبأهم والقاء القبض عليهم طرائق معجلة لا يزال يلح بمواصلتها الى ان يظهر المجرم . وليس بالوسع احصاء الحوادث التي فيها توفق الامير بدهائه وترويه الى رفع الحجاب عن غوامضها الفظيعة فنقتصر على ايراد مثالين من هذا القبيل :

قتيل الدامور

« حدثت جريمة قتل عند ضفة نهر الدامور الذي يصب في البحر على منتصف المسافة بين بيروت وصيدا ، وقد وجدت جثة القتيل في محل غير بعيد عن الطريق العمومي على مقربة من المياه في مكان يسهل العبور فيه من جهة الى اخرى . ولم يقم دليل لمعرفة القاتل او القتلة رغم ما جرى من البحث والتحقيق في القرية المجاورة . الا ان الامير لم يتوقف عند هذا الحد اذ لم يكن في الدنيا ما تثقل عليه وطأته اكثر من جريمة يبقى مرتكبها مخفياً وغير معاقب ، فاختار من ثم اثنين من رجاله وامن لهم راتباً وافياً على شرط ان لا يغادرا المحل الذي وجدت فيه الجثة لا ليلا ولا نهاراً البتة ، وان يتناوبا السهر بكل ساعات الليل بدون انقطاع وان يسترقا سمع كل ما يصل الى آذانهما من احاديث المارة ومن ملاحظاتهم . فمضت الايام والاسابيع والشهور ولم تظهر دلالة ترشد الى سر الجريمة . اخيراً وبعد انقضاء ثمانية اشهر وعند بزوغ الفجر اذا بمكاريين يستحثان بغليهما على الطريق بقرب المحل الذي عثروا فيه على الجثة ، واذ لم يشعرا بوجود الرقيبين المختبئين وراء اوراق شجيرات اخذا يتكلمان عن العمل الذي اتياه هنالك مهنئاً احدهما الاخر بان حسن طالعهما ابقى امرهما مستتراً ، فما كانت تتم هذه العبارة حتى شعرا بايدي الرقيبين تطوق عنقيهما وبالزرد يشتد على ايديهما وهما يساقان الى بيت الدين . وفي مساء ذلك النهار عينه وبعد ان اقرا بذنبهما

شوهدا معلقين شنقاً على شجرة بالقرب من محل الجناية .

المجرم الفار الى قبرص

والخبر الثاني الذي اورده الكولونيل شرشل خلاصته ان احد الاشقياء ارتكب جريمة قتل وفر الى جزيرة قبرس فبعد التفتيش عليه عبثاً مدة طويلة في لبنان وجواره خطر في بال الامير ان يعهد الى احد ثقاته ان يسافر الى قبرص ويبحث عنه هنالك . فسافر ولقيه في الجزيرة واحتال عليه حتى فتح واياه محلا تجاريا فلم يلبثا ان خسرت تجارتهما واشهرا افلاسهما ، فاقترح رسول الامير ان ينتقلا الى الاسكندرية للارتزاق فيها ، واخذا مركباً كان طريقه الى بيروت حيث كان موعده التوقف نحو ساعتين ولما وصلا اليها قال رسول الامير لرفيقه : « اذا حسن لديك هلم ننزل ونتنزه في المدينة ونعود » فرضي رفيقه على يقين ان لا احد يخطر في باله القاء القبض عليه . ولكنه ما وطأت قدماه اليابسة حتى وجد نفسه مقيداً بين رجلين شديدي السواعد من رجال الامير . وقد تم ذلك بموجب الخطة التي كان سبق ودبرها رسول الامير . وفي النهار نفسه وبعد ان اقر الرجل بجريمته حكم عليه الامير بالاعدام شنقاً ونفذ الحكم حالا .

حاملة الالماس

وبعد ايراد هذا الخبر يبدي الكولونيل شرشل هذه الملاحظة:

« فلا غرو مـن ثم اذا بات ارباب المفاسد على عهد حاكم هـذه صفاته وقد اعترى ايديهم الشلل وانقطعوا عن اعمالهم الاثيمة انقطاعا باتاً . وكانت النتيجة انه عند اواخر حكمه الطويل والصارم سار في البلاد مثل مأثور عبر عـن واقعة الحال وهـو قولهم : « تسافر الفتاة وحدها بين جبال لبنان كلها حاملة على رأسها علبة المـاس ولا تخشى يدا عادية اصلا » ... نقطع هنا كلام شرشل لنضيف اليه فقرة تلامس موضوعه ونكمله فنقول :

خيالة المير

نظم الامير فرقة مـن جنوده على شاكلة فرقة الحوالة كانوا يسمونها « خيالة المير » قوامها خمسمائة خيال من اشد رجاله شجاعة وبأسا واكثرهم اقداما وبطشا وابرعهم في ركوب الخيل دربهم خاصة على اكتشاف مخابىء المجرمين والقاء القبض على اهل الفساد بسرعة اينما كانوا . فكان لهم لدى العموم منزلة عالية من التهيب والاحترام يخشاهم القاصي والداني لان بواسطتهم اوجد الامير ما ذكرناه من الراحة والطمأنينة في البلاد . وكان اهل القرى المنفردة اذا فوجئوا بهجمات بعض الاشقياء يصرخ بعض اهل القرية « وصلت خيالة المير » فيرتجف الاشقياء ويسرعون الى الانهزام ، ومثلهم كان يفعل اللصوص وقطاع الطرق اذا سمعوا بقدوم خيـالة المير لانهم كانوا يعرفون ما

سيكون مصيرهم اذا وقعوا بين ايدي هوءلاء الخيالة الاشداء او بين سنابك خيولهم اي السجن المظلم او الشنق »

معاقبة الشيخ رستم

من اخبار عدل الأمير خبر القصاص الذي اوقعه باحد افراد اسرة نبيلة في لبنان ذات سطوة وجاه وكرامة هي اهل لها ولا تزال وهي من اصحاب المقاطعات وكان الامير بشير لا يجهل مقامها وفضلها على لبنان والخبر ننقله عن كتاب « المقاطعة الكسروانية » وفيه ما يلي :

« سنة ١٧٩٨ قتل الشيخ رستم بن مرعب الخازن كاهنا من جديدة غزير من عائلة علام وقد حدث منه القتل من غير تعمد . فالقى الامير حسن والي كسروان القبض عليه وارسله حالا الى اخيه الامير بشير في دير القمر . فلما وصل امر الامير بقطع يده اليمنى ولما راموا ان يكووها بالزيت الحار لحسم سيلان دمها أبى مفضلا الموت على رجوعه الى كسروان بيد واحدة فترك والدم يسيل من يده حتى افضى الى مماته »

اما شكل العقاب هذا فان لم يكن مألوفا في هذا العهد فقد كان جاريا في حكومات ذلك العهد عموما فما كان يستغربه احد

قتلة البطريرك

كان في قرية كفرعقاب المجاورة بسكنتا في اعالي قضـاء المتن رجل اسمه الياس عماد المعلوف رأى ابناء بلدته ان يكنوه بابي كشك والذي يصفه فؤاد البستاني في « عهد الامير بشير » بالسطور التالية :

رزق الله ابا كشك اربعة اولاد ذكور فكانوا (لجبرة خاطر ابيهم) اشد نهماً منه واكثر جشعاً وادق حيلاً في القـاء الفتن وسل اموال القوم فحصلوا مبالغ لا يستهان بها واصبحوا من اشهر اغنياء المديرية.

وكان احد ابنائه يتودد الى فتاة في القرية طالباً الاقتران بها واذ كان يعلل نفسه بالآمال بلغه خبر زواجها باحد ابناء عمها فغضب هو واخوته ولا سيما ابوه الذي رأى في هذا التفضيل اهـانة شخصية، فاضمروا الشر لزوج الفتاة الى ان تمكن طالبها الخاسر مع احد اخوته من الغدر بزوجها وصرعاه قتيلاً في احدى ليالي سنة ١٨١٢ ولاذا بالفرار الى محل وهما انه حرز حريز، واذا بخيالة الامير في اليوم الثالث تقبض عليهم بغتة وتسوقهم مكبلين الى سجن بيت الدين. فارتاع الوالد ايما ارتياع وتأكد ماذا تكون العاقبة واسرع هو وولداه الآخران الى دير سيدة النياح في بقاعتوتا على مقربة من بلدته وكان زائراً فيه السيد اغناطيوس صروف بطريرك الروم الكاثوليك، وعائلة ابو كشك تنتسب اليها، وتوسلوا اليه ان يرسل الى الامير كتاب توصية بالشابين. فوبخهم البطريرك على تلك الفعلة الشنعاء وابى التدخل

لعلمه بعدل الامير واذ لم يزالوا يواصلون الالحاح حتى كاد البطريرك يراهم امامه حيثما توجه ، ارسل الى الامير كتاباً يرجوه فيه تخفيف عقاب الجانيين ، فاتفق ان وصل كتاب البطريرك الى الامير بعد ان كان هذا اصدر امره بشنقهما ولا سبيل لتوقيف تنفيذه ، فعلقا في في ساحة بيت الدين .

فلسوء ظن ابي كشك وولديه ، نسب مصير القاتلين الى كتاب البطريرك الذين وهموا انه كان لا كتاب توصية بل كتاب تحريض لقتلهما عبرة لسواهما واضمروا الشر للبطريرك وعزموا على اتيان امر منكر لم يؤت بمثله في الشرق من قبل اى انهم اردوا البطريرك قتيلا في ٢ تشرين الثاني سنة ١٨١٢ . وقد اورد خبر هذا الحادث صاحب الغرر الحسان في تاريخ حوادث سنة ١٨١٢ على الوجه التالي (٣ ، ٥٨٥) وهو معاصر لتلك الحادثة قال :

« وفي هذه السنة كان البطريرك اغناطيوس بطريرك طائفة الكواتلي[١] متوجهاً من دير مار سمعان الى دير النياح بقرب بسكنتا فاغتاله الياس عماد واولاده من بيت المعلوف . وقد كانوا رابطين له في الطريق فقوسوه ضربين وضربوه في النجاق الى ان مات وهربوا حالا من البلاد الى مدينة طرابلس واذ كانت البغضة متجسدة بين طايفة الروم وطايفة الكواتلي اخفوا الياس عماد واولاده وجهزوا لهم مركباً

---

(١) يعني الكاثوليك

وتوجهوا الى جزيرة قبرص . وحين بلغ الامير بشير هذا الخبر عظم عليه جداً وارمى التفتيش على المذكورين فرآهم هربوا . وقد شاعت الاخبار ان هذا التدبير من بعض اناس من طائفة الروم من اهالي قرية بسكنتا وسبب ذلك ان طايفة الروم كانوا يبغضون البطريك المذكور كون انه كان فارغاً جهده ان يصيّر اكثر الروم ان يرتدوا الى طايفته .

وحين بلغ سليمان باشا والي صيدا تلك الاخبار تحرك بالغضب على طايفة الروم حيث خدم بابه اكثرهم من طائفة الكاثوليك وحضر منه اوامر الى الامير بشير انه يجري القصاص والتأديب على كل من له اشتراك بذلك الامر وقبض الامير بشير على البعض من طايفة الروم القاطنين في قرية بسكنتا . واجري عليهم العذاب الاليم وعندما لم يبن عندهم تأكيد الامر امر في اطلاقهم بعد اقامتهم في الحبس مدة طويلة وابتدأ يترصد وقوع الياس عماد واولاده » .

بعد ان تأكد الامير ان الجانيين ليسا في لبنان ولا في الاقطار السورية استدعى رجلا درزياً داهية من اعوانه وارسله للبحث عنهم في قبرص فوصل اليها بلباسه اللبناني ولم يزل يسأل عنهم حتى التقى بهم . وعلى سؤالهم اياه « من تكون ؟ » اجاب انا رجل لبناني من طائفة الدروز شاء سوء طالعي أن اطلقت الرصاص على احد ابناء الامير فاخطأته والامير مجد بالتفتيش علي وقد توفقت في الهرب الى هذه الجزيرة » . ولما استأنسوا به اباحوا له بسرهم وصاروا يصرفون الاوقات معا الى ان

الدرزي غاب عنهم مدة ثم عاد وعلى وجهه امارات الرعبة وقال : بلغني ان الامير عرف بعقرنا ولا بد انه عن قريب يصل من يقبض علينا بالاشتراك مع حكومة هذه الجزيرة . قالوا وهم مذعورون من هذه المفاجأة : واين المفر؟ قال: لست ارى آمن لنا من جبال ووديان حوران حيث لي اهل ومعارف . فوافقوه على ذلك . وفي تموز سنة ١٨١٣ كان وصولهم الى شاطيء لبنان الشمالي ونزلوا بالقرب من برج سلعاتا الكائن بين ديرالنورية والبترون فقال لهم الدرزي: الاوفق ان تبقوا في هذه الناحية الى ان اذهب عند اقاربي اطمئنهم واعود اليكم ويكون الملتقى في مدينة بعلبك . ثم اسرع واخبر الامير الذي ارسل الاوامر حالا مع التعليمات اللازمة للقبض عليهم ولم يلبث الجناة ان شعروا بايدي خيالة المير تشد اكتافهم في بلدة حدث الجبة ، فسيقوا الى بيت الدين حيث أعدموا شنقاً فسر الامير من اهالي الحدث الذين ساعدوا الخياله على النجاح في مهمتهم . وكان قد جعل جائزة الف غرش لمن يقبض على واحد من هؤلاء القتلة وخمسمائة لمن يحضر له رأسه . وكان الذي عرفهم ، ودلّ الناس عليهم ، رجل من بسكنتا اسمه صعب الدير كان في ذلك الحين موجوداً في تلك النواحي (الغرر الحسان ٣ : ٥٩٢) واطلقت العامة على محل اغتيال البطريرك اسم (قبر البطرك) وهو يعرف الى الان بهذا الاسم في الموضع المذكور انفاً وكم من مرة اتفق لكاتب هذه السطور ان مرّ بذلك الموضع لقرب بلدته كفرديان منه فوقف هناك واستوقف ، وتذكر وذكّر .

من قتل زوجها ؟

مر الامير يوماً في قرية كفرنبرخ الشوف وهو ذاهب الى نبع الصفا في كوكبة من الخيالة واذا بامرأة تلتقيه في ساحة القرية محلولة الشعر حمراء العينين تلطم وجهها وتصرخ فامسكت بعنان فرس الامير واخذت تصيح : دخيلك يا صاحب السعادة قتلوا زوجي . دخيلك مظلومة . وكان اهل القرية تجمعوا وتألبوا حول الامير فنظر اليها الامير بحدة وتقدم صامتاً الى السنديانة الكبيرة التي في وسط الساحة وقال بلهجة شديدة :«يا سنديانة كفرنبرخ، اشهدي . اذا وقت رجوعي بعد يومين ما وجدت الغريم على كعبك لاجعل الغربان فيك على عدد اوراقك » ثم امال فرسه وكمل المسير .

حار الاهلون في سر هذه الجريمة واخذ مشايخهم يبالغون في الفحص ويعجلون ، لعلمهم ان الامير هو الرجل الذي ان قال فعل . وبينما كانوا في المساء التالي بحالة الارتباك الشديد واليأس اذا بشاب معروف بدهائه يدخل اليهم ويقول : عرفت الغريم - ومن هو ؟ - هو ، هو امرأة القتيل لا غيرها !

فكأن نوراً جديداً لمع امام عيونهم واعاد الى اذهانهم ذكريات غير بعيدة فذكرهم واحد ان زوجها علياً مراراً عديدة اراد ان يطلقها بسبب ما عرفه عن علاقاتها ذات الشبهات مع احد الجيران محمود وقد منعه المشائخ واصلح رؤساء العيال بينهما . وافادهم آخر ان محموداً

المذكور قد غاب ثاني يوم الجريمة عن البلدة فارسلوا يدعون المرأة الى جلسة عقدها وجوه كفرنبرخ وسألها واحد : اتريدين معرفة قاتل زوجك ؟

ـ نعم نعم لكي امزقه باسناني !

فقال لها : خففي من غلوائك . انت تعرفين حق المعرفة من هو القاتل ونحن نعرفه ايضاً فاقري بجريمتك فهذا خير لك .

وكانت عيون الجميع متجهة اليها فاذا بالمرأة تصفر خوفاً وتقع مغشياً عليها فعالجوها بماء الزهر واحتفظوا بها .

وعند المساء رجع محمود من رحلته، فاحضروه الى مجلس الشيوخ حيث قابلوه بالمرأة فاقرا بجريمتهما وانتشر الخبر بسرعة البرق .

في عصر اليوم الثالث وصل موكب الامير الى القرية وكانت الجماهير مزدحمة في ساحتها توسع المجرمين امر الشتائم . واطلع الامير على ما جرى فقدم ببطء على جواده ووقف تحت السنديانة وسأل المجرمين : اصحيح انكما قتلتما الرجل ؟ فصمتا وامالا اعينهما نحو الارض. عند ذلك امر ثلاثة من رجاله ان يعلقوا في الحال مشنقة محمود في السنديانة ففعلوا . اما المرأة فامر بلفها في كيس وطرحها من الجبل الى وادي نبع الصفا . وكان لم يمض على القتل خمسة ايام (على عهد الامير) .

ظهور الامير يرد هجوم الاروام عن بيروت

جاء في الغرر الحسان (٣: ٧٧٩) وفي تاريخ الاعيان (: ٥٦٠) انه في سنة ١٨٢٦ قام الاروام اي اليونان في الموره وهي مقاطعة في بلادهم وثاروا على الدولة العثمانية طلباً لاستقلالهم فحضر ليلاً الى بيروت اثنا عشر مركباً وخرج منها عسكرهم الى البر ونصبوا سلالم على اسوار المدينة وصاروا يضربونها بالمدافع . فدخلها البعض فقط من رجالهم لان هيجان البحر والزوابع حالت دون اقتراب المراكب الى المينا فهجم اهل المدينة على هؤلاء الانفار وكثروا عليهم وردوهم الى خارج الاسوار حيث استؤنف القتال . فقتل من الاروام خمسة عشر رجلا ومن اهالي بيروت تسعة وسقطت الجرحى من الفريقين ورجع الاروام الى برج بو هدير تجاه المراكب . ولا بد من الفات نظر القارىء هنا ان بيروت كانت في تلك السنة تابعة لولاية عكا الحقت بها ظلماً قبل حكم الامير بشير ببعض السنوات وكانت من قبل تخص لبنان . ونحن في ما يلي نورد للقاريء فقرة صاحب الغرر الحسان بحرفها ليمعن نظره فيها ويبدي رايه الصائب قال : « ثم في الحال ارسل المتسلم والمفتي واكابر المدينة استنجدو بالامير بشير الشهابي وارسلوا اعلموا عبدالله باشا والي عكا وبالحال عاجلا ارسل الامير بشير ولده الامير خليل ومن اتجد عنده من الخدم وارسل اعلام الى اهالي البلاد عموماً ان يوافوه الى ساحل بيروت . وفي ثاني يوم سار بعسكره الى الشويفات وعند

الصباح نهض الى حرش بيروت . وحضر عنده المتسلم واعيان المدينة وقابلوه وشكروا همته وصار الاعتماد انه يضرب بعسكره الى ذلك الذي في برج بو هدير وعند الصباح اتاه الخبر ان اولئك الاروام الذين في البرج حين بلغهم وصول الامير بعساكره رجعوا ليلا الى المراكب . ثم حضر كاخية عبدالله باشا وصحبته ابو زيد آغا ونحو ثلاثمائة عسكري.. فامر الامير عساكره بالرجوع كلهم لمحله ورجع بمن معه لمكانه بكل عز وانتصار وعدت له من جملة الفتوحات المتقدم ذكرها لانه لولاه كانت تلك المراكب دخلت بيروت وتسلموها .

دفعة التعدي عن المظلومين

واستتلى صاحب الغرر الحسان بقوله (ص ٧٨٠) :

« ثم هاجت اسلام بيروت على النصارى وامر كاخية عبدالله باشا في القبض على النصارى وجرمهم وسلب اموالهم وارزاقهم فالذي وجدوه بالبلد قبضوا عليه وجرموه باكثر ما معه . فباعوا املاكهم وامتعتهم باقل ثمن وذاقوا شدة عظيمة والذين هربوا الى الجبل ضبطوا ارزاقهم ودكاكينهم وماكان في بيوتهم ورقموه جميعه في دفاتر » ولما علم الامير بشير بأمر هذا التعدي تداخل بالقضية مع عبدالله باشا فقبل هذا وساطته وارسل امراً برفع الضبط عن كل ما للنصارى وان يرجعوا الى اوطانهم ويتصرفوا بأموالهم وهذه صورة الامر :

هذه صورة الامر

صدر مرسومنا هذه المطاع الى كامل رعايانا الذميين النازحين من مدينة بيروت طائفة الكاثوليك وطائفة الموارنة وطائفة الروم عموماً يحيطون علماً انه قبل تاريخه بوقت الحركة التي توقعت من الكفرة الاروام الخاسرين وجسارتهم على مدينة بيروت طرق مسامعنا بان الحركة التي حصلت كانت بدساستكم ومطابقتكم للكفرة الخوارج ولاجل ذلك نزحتم من بيروت وفررتم للخارج . فاقتضى لاجل قصاصكم عن هذه الخيانة التي بدت منكم صدر امرنا بضبط كامل ارزاقكم وامتعتكم الموجودة بمحلاتكم. فالآن تحقق لدينا ان نزوحكم من بيروت وتوجهكم للخارج فهو كان من الخوف الذي دخل عليكم واعتراكم فقط . وحين تأكد وتحقق لدينا ذلك ، وبحيث انكم رعايا ، ومرحمة لحالكم عفونا وسمحنا عن هفواتكم وقد صفي خاطرنا عليكم ومصدرين مرسومنا لكم فبوصوله واطلاعكم على مضمونه تعلموا ان خاطرنا صفي عليكم وعفونا عن هفواتكم . وبالحال تقوموا تحضروا الى بيروت تتعاطوا اشغالكم واسباب معاشكم حسب عوائدكم . وقد صدر امرنا لجناب ولدنا افتخار الاماجد وعمدة الاعيان الموقرين كتخدانا حالا ولدنا الحاج ابراهيم آغا المكرم ان بوصولكم يسلمكم كامل حوائجكم وموجوداتكم والامتعة الموجودة داخل بيوتكم ومخازنكم ودكاكينكم واودكم التي وقع عليها الضبط من طرفنا . المراد بالحال تحضروا الى

بيروت كما امرناكم ولا تخشوا من شيء ولا يكون عندكم وسوسة ولا مخايلة بحوله تعالى بوجه من الوجوه ، ولكم منا على ذلك قول الله ورأي الله وسيدنا محمد رسول الله ﷺ ثم رأينا . وان شاء الله تعالى ما تشاهدوا من طرفنا الا الحماية والصيانة من سائر الوجوه . اعلموا ذلك واعتمدوه غاية الاعتماد . في ١٣ رمضان سنة ١٢٤١ (١٨٢٦) .

اعادة بعض مسلوبات النصارى

وحين وصلت تلك الاوامر الى النصارى امتثلوا الامر وعزموا على الرجوع فلم يسلمهم كاخية عبدالله باشا ارزاقهم ودورهم . فاعرضوا الى عبدالله باشا وحضر امر الى الكاخية . وهذه صورته (الغرر الحسان القسم الثالث صفحة ٧٨٢) :

افتخار الاماجد الكرام وعمدة الاعيان الموقرين كتخدانا حالا ولدنا الحج ابراهيم آغا زيد مجده .

غب التحية والتسليم بمراسيم الاعزاز والتكريم والسؤال عن خاطركم بكل خير وعافية . المنهى لنجابتكم مقدماً بحسب ما حصل من المجاسرة من الكفرة الاروام الخوارج على مالكانتنا مدينة بيروت وبهذه الحركة نزحت رعايانا الذميين من البلدة ولم يزل حاصل عدم تطمين على الرعايا داخلا وخارجاً . فنخبركم ان مالكانتنا مدينة بيروت مأمول منها ايرادات كلية ، اذ كان من اقلام ميرية ومن مصلحة الجمارك

ومن تصريف اشياء تخص دايرتنا مثل اغلال والصابون وخلافه . وما عدا ذلك قلم حادثة الحرير وكماركه وايراد كمارك الامانات والخراج والجزية وغيرهم وكل قرش تأخر من هذه الاغلال فتأخيره عايد على مصلحة خزينتنا . وهذا التأخير سنوي لا وقتي وهذا المحل تدوير دوالبه من اهم الامور والزمها كونه من خاص خواص محلات ايالتنا ولا يقتضى تركه بهذه الحال بعد هذه الحركة التي توقعت وصارت اسباب الى تقلقل الرعايا وتشنطلهم ، ونظرنا ان بقيت اليد موضوعة على محلاتهم لا يطمئنوا ولا يتركنوا . ومرحمة لاحوالهم ورغبة بالعمار تحسن لدينا رفع الضبط عن الاملاك . فلازم سرد هذه العبارة لنجابتكم لكى بحوله تعالى بوصول مرسومنا هذا اليكم ووقوفكم على مضمونه تعملوا وتحققوا ان خاطرنا صافي على رعايانا بوجه العموم من اسلام وذميين . وبالحال تعملوا ديوان حافل وتتلوا مرسومنا هذا اعلاناً على رؤوس الاشهاد لكي يتحققوا الجميع اشهار اماننا . وفيما بعد تطلقوا نداء في شوارع البلدة وازقاقها وتطلقوا النداء ايضاً بالبساتين والابراج والمحلات الموجودة خارج البلدة وتعلنوا امرنا على الجميع من رفيع ووضيع وترفعوا الضبط عن محلات رعايا الذميين باجمعهم داخلا وخارجاً . فالذين موجودين تسلموهم محلاتهم بالحال والذين باقيين بالخارج تحرروا من طرفكم لولدنا الامير بشير الشهابي المكرم بخصوصهم وتعلموه بصدور امرنا هذا وتؤكدوا عليه تأكيد تام بان يرسل كامل رعايانا الموجودين بمحلات الجبل يستلموا كامل املاكهم

ويتعاطوا امور تجارتهم كجاري عوايدهم . وبحمده تعالى كل منهم ما يشاهد الا الحماية والرحمة ولهم على ذلك امان الله . وبعد تسليمهم بموجب امرنا هذا قدموا الاعراض لطرفنا . اعلموا هذا واعتمدوه غاية الاعتماد في ٣ شوال (١٢٤١ ـ ١٨٢٥) .

فامتثل الكاخية الامر وسلم الارزاق الى اصحابها . وانما كان قد سلب من بيوت النصارى وحوانيتهم جميع الاشياء المثمنة تنوف عن الالف كيس . ثم رجع الى عكا وامر عبدالله باشا برفع جميع الاسلام الذين متسلمين الابراج والقلعة والحصون وارسل ارناووط مكانهم وقطع ما كان مرتب لهم من علوفات وغيرها فعظم ذلك على اسلام بيروت وتغيرت محبة عبدالله باشا من قلوبهم الى البغضة . وكذلك عبدالله باشا ابغض اهالي بيروت بما ابدوه الاسلام من النهب من امتعة النصارى . ثم بلصهم الباشا بخمسمائة كيس نظير ما سلبوه .

الفصل الثاني

سعي الامير في رفاهية شعبه

ان القارىء اللبيب بعد مطالعته بامعان اخبار الامير بشير في تاريخيه الكبيرين الشهيرين (تاريخ الاعيان والغرر الحسان) لا يتمالك من الحكم بان هدفاً واحداً كان موضوعاً نصب عينيه طيلة سني حكمه،

وانه الى بلوغ هذا الهدف كان يرمي في كل ما يأتيه من الاعمال والمساعي والمشاريع على اتساعها وكثرتها وتعداد انواعها، وهو هدف يا حبذا لو كان يسعى وراءه كل من ولي الاحكام، الا وهو (راحة شعبه ورفاهيته) ولو ان هذا خفي على الكثيرين من معاصريه وسواهم الا انه لم يخف على اهل النظر . فان ما سبق ذكره عن تأمينه الطرقات والتشديد على اهل المفاسد واجراء العدالة ومنع القلائل والسعي وراء الاستقلال والتملص من عمال توركيا ومن سلطة دولتهم حتى الدخول في الحروب عند الاقتضاء الى غير ذلك من الاعمال باهرة كانت ام عادية لم يكن منه الا لنيل ذاك الهدف الشريف وقد تمكن من بلوغ نصيب وافر منه واذا هو لم يظفر به كله فليس لذنب منه او تقصير بل لظروف قاهرة غالبة حسب ما قال الشاعر :

ما حيلة الرامي اذا احتدم الوغى وأراد رمي السهم فانقطع الوتر

وفي السطور التالية طرائف عن بعض ما لم يسبق ذكره من مآتيه في هذا السبيل مآت كانت ولا تزال لدى كل الشعوب بمثابة اركان الرفاهية والسعادة .

اول مطعوم جدري في الشرق

لقد بدت على عهد حكم الامير الرشيد وبفضله مظاهر اتجاهات جديدة في ميدان التمدن والتقدم الحديثين واولها عنايته بصحة شعبه

ووقايتها من الاوبئة ، من ذلك ادخاله التلقيح ضد مرض الجدري (اي مطعوم الجدري) لاول مرة في لبنان بل في الشرق الادنى قاطبة .

احضر مادة التطعيم الى الامير سنة ١٨١٠ السيد لورلا قنصل دولة النمسا فاستعمله لبعض حاشية الامير وكان يومئذ في قرية برجه اناس مصابون بهذا المرض فارسل المطعمين الى هناك ، وكانوا ممن يعتقدون بالقضاء والقدر ، فدخلوا بين اولئك المجدورين وخالطوهم بجرأة وعادوا سالمين فوثق الامير بذلك واستعمله لنفسه ولاهل بيته فشاع ذلك في البلاد واستعمله الكثيرون . ولما حدث هذا المرض في تلك السنة سلم الذين كانوا تطعموا فعم استعماله واكبر الناس فضل الامير في هذا الفتح الجديد لان هذا الداء كان يظهر كل سنة في البلاد بشكل فظيع فيحصد الاطفال بصورة هائلة ويترك آثاره على وجوه الناجين . وقد بان عطف الامير على شعبه من هذه الناحية سنة ١٨١٤ عند وقوع وباء الطاعون في قرية جباع الشوف فاقام الامير حراساً على القرية منعوا الدخول اليها والخروج منها فسلمت تلك النواحي . وفي السنة نفسها ظهر هذا الوباء في دير القمر وكان الامير يومئذ يصطاد في وادي التيم ، وجبه للصيد امر مشهور ، فاسرع بالعودة وامر باخراج المصابين ومن لامسهم الى محل يدعى وادي دير القمر واخلى لهم هنالك نحو ثلاثين منزلا ووضع الحجر عليهم وكلما اصيب احد غيرهم يفعل به هكذا . وجعل للمصابين نفقات من ماله وكانوا ثلاثمائة فمات منهم سبعون وسلم الباقون ، ودام الوباء نحو ثلاثة اشهر ثم انقطع ولم يحل في

مكان آخر من البلاد .

لينشرح منك الصدر وتقف معجباً لما ترى الحاكم الاعلى في البلاد يتولى بنفسه الاهتمام الجدي بمصالح ابناء شعبه في ملماتهم ايام لم تكن تعرف في بلادنا المستشفيات ولا الوسائل العصرية للوقاية ولم يكن يرضى باحالة شؤونهم الى المأمورين والموظفين الذين يخشى ان يقصروا في اداء الخدمة الوافية بل اهتم هو بهم بنفسه .

مكافحة الجراد

ويلامس هذا الموضوع خبر مكافحته الجراد وفيه نكتة : في ايار سنة ١٨١٢ دهم الجراد من نواحي نابلس بلاد سوريا واكل منها الاخضر واليابس وزحف الى لبنان وغرز في كل السواحل البحرية وكان جيشاً عظيماً بحيث ذكروا عنه انه اذ انتشر حجب الشمس . فهال الناس امره ففرض الامير على كل لبناني ان يجمع من بذور الجراد نصف مد فاخذت الناس تحرث الارض وتستخرج البذر فيحرقونه فجمعوا منه نحو خمسين غرارة (٥٠ شوالا) غير ان الباقي منه فقس قبل جمعه وامتد في البلاد فامر الامير ان تبادر الناس اليه ويحفروا له الحفر ويساق اليها ويحرق . وكان يرسل الامراء بني عمه واكابر الاعيان لمراقبة العمل فاهلكوا منه اكثره . اما الباقي فتغلب على مكافحيه وذهب الى اراض صلبة لا يمكن الحفر فيها . فتوقفوا محتارين واذا

بالامير يحضر ذهنه اختراع ظريف لم يكن سبقه اليه احد وهو انه امرهم ان يجمعوا اغصاناً يابسة وشوكاً وبلاناً وخلافها مما يسهل حرقه وان يكسوها باغصان مورقة خضراء ويطردوا الجراد اليها . ففعلوا ولما كانت تمتلىء منه كانوا يحرقونها وما زالوا مواظبين حتى ابادوه تماماً ولم يتضرر منه احد .

اول محجر صحي واول اطباء قانونيين

ومن قبيل اهتمامه بصحة شعبه كان انشاؤه لاول محجر صحي (كرنتينه) في لبنان وسوريا على عهد الحكومة المصرية وقد انشيء في بيروت فاكرهت جميع السفن الاجنبية ان تأتي اليه اولا لاجل المراقبة الصحية فنجم عن هذا العمل فائدة جمة واصبحت بيروت مرفأ لاقطار الشرق الادنى فازدادت فيها الحركة التجارية خاصة ونمت سريعاً وما لبثت ان دخلت في طور حياتها الحديثة الى ان اضحت مع الايام مدينة كبيرة بعد ان كانت قرية بسيطة .

ولما رأى البلاد بحاجة الى اطباء بارعين اتفق مع الحكومة المصرية وارسل شباناً لبنانيين اذكياء ليدرسوا الطب في مدرسة قصر العيني في القاهرة فعادوا بعد حين الى لبنان وكانوا اول اطباء قانونيين في البلاد الشامية فادوا للبلاد فوائد تذكر بمعالجة الامراض بالطرق العلمية الفنية وبتنويرهم الاذهان وتأليفهم . وبقيت هذه العادة مرعية

الى مدة من الزمن غير وجيزة ولم تنقطع الا في ايام توفيق باشا خامس خلفاء محمد علي . واول من ارسلهم الامير وتخرجوا في قصر العيني الدكاترة غالب الخوري البعقليني وابراهيم النجـار ويوسف الجلخ ويوسف مرهج ومملوكه سليم خورشيد . ومن الذين تخرجوا فيها بعدهم الدكاترة ميلاد جرجس صفير من عجلتون والشيخ منصور الخازن من كفرديان وفارس افندي نجم من كفرتيه وشاكر الخوري البكاسيني .

نصير النهضة العلمية

لم يفت الامير ان العلم عامل فعال لترقية الامة وتحسين حالها ورفاهيتها واسعادها اللهم العلم الصحيح الذي يرافقه تهذيب الاخلاق فقرب من نفسه اليه رجال العلم والادب والشعر واكرمهم على منزلتهم ، وعهد الى بعضهم ادارة الديوان والقيام بما هنالك من انشاء رسائل وكتابة وتأليف وتدوين حسابات ، والى البعض الاخر تثقيف اولاده وحذا بذلك حذو ملوك خلد التاريخ ذكرهم كهارون الرشيد وابنه المأمون وشرلمان. فاجتمع من ثم في داره اقطابهم. وكم من مرة شوهد الامير وحوله العلماء والشعراء وتلامذتهم يشجعهم ويكافئهم ومنهم الشيخ ناصيف اليازجي والكونت رشيد الدحداح وغيره من ابناء اسرته آل دحداح التي معظم رجالها من ارباب القلم حسب قول قديم مأثور في لبنان : « السيف لبيت حبيش والقلم لبيت الدحداح والكرم

لبيت الخازن » ومن بطانة الامير وندمائه الشعراء الثلاثة بطرس كرامه ونقولا الترك وامين المنذي وسمعان الحكيم من غوسطا الذي كان يلقب بالشدياق (اي المعلم) وكان يدرس اولاد الامير اللغات الاجنبية وهو يصغرهم سناً . وكان له ابن عم كاهناً في قصر الامير . ولسمعان هذا نادرة ظريفة جرت له مع الامير بشير لا بد من تدوينها للتاريخ :

ابن الامير يصفعه بقامه

كان سمعان هذا من النادرين الذين يحسنون في ذلك العصر اللغات الاجنبية مثل اللاتينية والايطالية وكان الامير يبحث عن من يعرف ذلك ليعلم انجاله على يده ليستطيعوا مواجهة سفراء الدول بدون ترجمان فدعا الامير سمعان المذكور لاجل هذه الغاية .

اما انجال الامير فلانهم كانوا يكبرون سمعان بالسن صعب عليهم الاذعان له ، فتمرد احدهم عليه مما اضطر سمعان بعد الصبر الطويل الى صفعه صفعة واحدة لتأديبه فاستنكر نجل الامير عمل معلمه معه وذهب فهاج اهل القصر عليه ، واستصدر امراً من ابيه بسجنه فاقام سمعان في السجن محجوباً عن الجميع ثلاثة ايام . في اثناء ذلك جاء اليه سراً زملاؤه في القصر يسهلون له الفرار خوفاً عليه من انتقام الامير منه فرفض ذلك ، ثم دعاه الامير ليحاكمه جهراً اما مجلسه ، فسأله بلهجة مرهبة عن واقع الحال ، فاجاب سمعان بصراحة وجرأة عن الحقيقة كما هي وبما ان

الامير كان يعطف عليه لاستقامته وصدقه ونزاهته اراد ان يساعده في الاستجواب فسأله ثانية عما اذا كان بعد تفكيره في اثناء سجنه في عاقبة الامر يجرؤ مرة اخرى على اعادة العمل؟ فاجاب سمعان فوراً: «نعم اني اصنع نفس العمل لاني لا ارضى ان اكون خائناً لك بالمهمة التي ائتمنتني عليها وهي ان اعلم بنيك ليخلفونك عن جدارة»

فاعجب الامير بهذا الجواب وحول غضبه الشديد الى حنان وعطف فقال ضاحكا: «حقاً انك قرم عنيد» وامر له حالا بكيس ٥٠٠ مكافأة له على اخلاصه في الخدمة ومن ذلك الحين لقب سمعان بالقرم واصبح هذا اللقب اسم اسرته الى الآن. وبقي سمعان في القصر ثماني عشرة سنة قائماً بمهمة تدريس انجال الامير ومدونا الحسابات الخصوصية لحرم الامير.

وقد تزوج سمعان المذكور مريم ابنة الهاني التي كانت جليسة حسن جهان زوجة الامير الثانية في قصر بيت الدين وولد له منها ثلاثة بنين اشتهر منهم داود القرم بفن التصوير اليدوي (الجبل الملهم الطبعة العربية).

امهات المدارس في لبنان

ان ما اشتهر عن محبة الامير للعلم والعلماء تقديمه اصحاب المعارف

وتنشيطه القوم على اقتباسها فضلا عما اوجده من استتباب الامن ذلك
كان داعياً لفتح المدارس بعدد وافر في ايام حكمه، مدارس تسمى بحق
(امهات) المعاهد العلمية الحالية في لبنان لان فيها تخرج العلماء
والاعلام من رجال الدين الذين الفوا الكتب ونشروا المجلات والجرائد
وانشأوا المدارس والمؤسسات الخيرية والاجتماعية مما يعتز بها لبنان
الان وقد ساعد الاقطار الشرقية عموماً على النهوض من كبوة العصور
الخالية .

وفي مقدمة هذه المعاهد العلمية نذكر المدارس الاربع الوطنية
التي كانت من قبل اديارا للراهبات العابدات من الطائفة المارونية،
ونظراً الى اتجاه ابناء العصر الى العلم والاحتياج اليه رأت السلطة
الروحية ان تحولها الى معاهد علمية مجانية لعموم ابناء الطائفة المارونية
بعد الاتفاق مع اولياء تلك المؤسسات ابناء الاسر اللبنانية : اسطفان
وصفير ومبارك واصاف وقد ادت هذه المدارس خدماً جلى للوطن .
واولها نشأة مدرسة عين ورقا في غسطا وهي التي انبعثت منها انوار
المعارف في لبنان وفي عموم الاقطار العربية بواسطة الذين تخرجوا فيها
يكفي ذكر اربعة منهم طالما استفاد الناس من مآثرهم وهم المطران
يوسف الدبس والمعلم بطرس البستاني والكونت رشيد الدحداح
وفارس الشدياق . ليس يعود الفضل في تأسيس هذه المدرسة الى الامير
بشير بل الى الشيخ غندور السعد مدبر الامير يوسف شهاب وقنصل
دولة فرنسا فتأسست سنة ١٧٨٩ في السنة الثانية لحكم الامير الا انه

قد مرت عليها بعد مدة ايام عصيبة بسبب اختلاف وقع بين ابناء الاسرة ذات الولاية ادنتها من التلاشي ، ولولا الامير بشير وعضده لرئيس المعهد لكانت توقفت عن اداء رسالتها الثقافية. وقد تأسست على شاكلتها المدارس الثلاث الاخرى اي الرومية في القليعات سنة ١٨١٨ ومدرسة مار عبدا في جديدة غزير ومدرسة ريفون سنة ١٨٣١ وكانت تأسست قبلها وعلى طريقتها مدرسة مار يوحنا مارون سنة ١٨١٢ في كفرحي لابناء جبيل والبترون .

ومن مفاخر عهد الامير من هذا القبيل ومن نتيجة رحابة صدره واتجاهه الحر نحو اوربا وعاداتها الحديثة كان دخول اقطاب العلم الغربيين الى لبنان منهم الارسالية الاميركية سنة ١٨١٨ والارسالية اليسوعية الثانية سنة ١٨٣١ ، وكان قدوم الارسالية الاولى على عهد فخر الدين الكبير، وتم لهم اذ ذاك فتحهم المدارس الابتدائية والعالية وتأسيسهم المعاهد الخيرية على ما هو مشهور . وهم اشهر من نار على علم التلامذة الذين تخرجوا في معاهدهم وكانوا لا يزالون في طليعة ارباب النهضة العلمية والاجتماعية والسياسية حيثما حلوا .

تنظيم القضاء

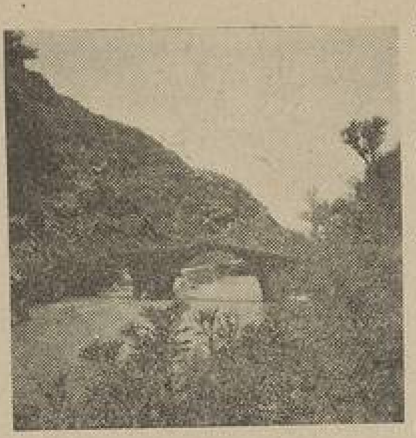
من اهم مساعيه في سبيل راحة الرعية تنظيمه على عهد الحكومة المصرية مجالس المشورة لضبط اموال الحكومة وللبت في الدعاوى

الحقوقية بين افراد الرعية « وفي هذه المجالس كان يجلس النصراني لاول مرة في التاريخ جنباً الى جنب مع المسلم لاجل القضاء على الاحكام واما قبل ظهور هذه المجالس فان القضاء كان محصوراً في المسلمين فقط فاصبحت هذه المجالس اللبنـانية والحالة هذه اولى المحاكم النظامية التي عمت البلاد فيما بعد (تاريخ لبنان الموجز للبستاني صفحة ١٤٠) هذا ينطبق على البلدان التي كان يقطنها المسيحيون مع المسلمين اما في الجهات التي يسكنها الموارنة فكان القضاء منذ القديم بيد قضاة موارنة.

تسهيل المواصلات

لم تفت الامير اهمية الطرقات فما استقرت له الامارة حتى استدعى المهندسين وعهد اليهم بتخطيط الطرق وفتحها بين كل قرى لبنان لا للمركبات، وقد كانت نادرة في ذلك العهد في بلادنا، ولكن للدواب وعليها يسير المسافرون فشقت عندئذ هذه الطرق المعبدة ذات الادراج المتينة البنيان فكانت الاولى من نوعها. وشد ما كان سرور الناس لما استعاضوا بها عن تلك المسالك والمعابر القديمة الضيقة الغير الوافية بالمراد. وقد صبرت على مرور الزمان ولا يزال بعضها باقياً في اماكن عديدة في لبنان بعد زهاء قرن ونصف قرن. فتسهلت المواصلات وقربت المسافات وقد وصل الامير عاصمة لبنان بيت الدين بسائر اطراف الجبل بطرقات كان يعني باصلاحها وترميمها. ومن الجسور التي بناها جسر الدامور وجسر نهر الكلب الذي كان بناه القائد

الروماني انطونيوس زهاء نصف قرن قبل المسيح ثم هدم فشيده الامير حسن الشهابي ثم هدم فبناه الامير بشير في سنة ١٨١٠ ولا يزال قائماً الى الآن يهزأ بالسيول الجارفة وبالعواصف وقد نقشت عليه ابيات نظمها شاعر الامير نقولا الترك نورد منها هذين البيتين :



جسر نهر الكلب الذي جدد الامير بناءه
(من مجموعة مديرية الآثار)

بنته الملوك القدم والماء هده على نهر كلب حل ارصاده الاسد
بشير مجيد قاهر قام حكمه شهابي بنى جسراً متيناً الى الابد

وقدسبق لنا ذكر بنائه قصر بيت الدين وجعله مقاماً لائقاً بحاكم البلاد ونختم بكلمة تبين كيفية جلبه اليه المياه :

كانت قرية بيت الدين التي نقل اليها مركزه من دير القمر قليلة المياه وكان الامير يشعر بوجوب جلب ماء غزيرة للحاجة القصوى اليها فقد كان في داره، على ما جاء في الغرر الحسان، من الاعوان المقيمين ببابه نحو ثلاثة الاف شخص عدا الخيل والبغال ونظائرها فلم يكن الماء يكفي هؤلاء الشاربين فضلا عن غيرهم من زائر وطارق وذي حاجة فارسل الامير رجلا خبيراً من دمشق اسمه خليل عطيه يبحث له عن

ماء يمكن جلبه فوجد هذا ماء على مسافة خمس ساعات تحت عين زحلتا
يجري من نبع القاع بجانب نهر الصفا ، وهو ماء غزير بارد عذب صحي
الا ان المكان كان عسر للغاية فامر الامير بجره ، وتم العمل باثنين وعشرين
شهراً وتدفقت المياه في ساحات القصر . واعترافاً بالجميل كانت اهالي
البلاد تتناوب العمل فيه بحيث كان كل لبناني يشتغل يومين في السنة
بدون اجرة وقد انفق الامير عليه زهاء مائتي الف غرش وقد عد ذاك
العمل فتحاً عظيماً لم يقدم على مثله احد من سلفائه فانتعشت به بيت
الدين وجوارها . واقام الامير حفلات عديدة لتلك المناسبة نظم فيها
الشعراء القصائد والموشحات مثبتة في الغرر الحسان وكان من اروعها
موشح المعلم بطرس كرامه مطلعه :

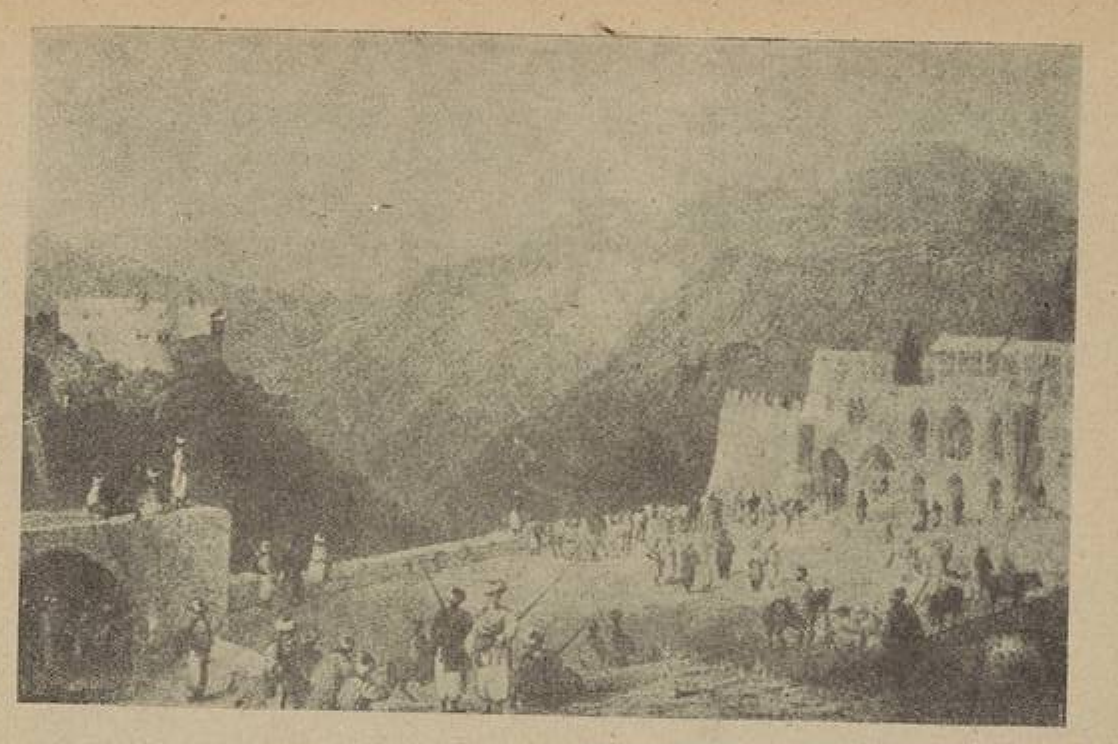
صاح قد وافى الصفا يروي الظما بشراب كوثري ألعس
وافاض الشهد في روض الحمى لجلا الغم وبرء الانفس

ويجدر بنا ايراد رواية ظريفة تتعلق بهذا المشروع الجبار ،
وهي انه بينما كان الامير عاقداً جلسة لدرس هذا المشروع مع مستشاريه
ومقربيه وعدد ممن لهم خبرة في الهندسة والبناء ، وقد كادت تنتهي
الجلسة الطويلة دون ان تسفر عن نتيجة بسبب النفقات الباهظة اللازمة
لذلك المشروع وكان الامير والشعب عاجزين عن القيام بها ، واذا برجل
يستأذن ويدخل عليهم وهو يعرف باسم (اخوت شانيه) اي مجنون
شانيه نسبة الى بلدته المعروفة بهذا الاسم في قضاء الشوف اطلق عليه

هذا الاسم لخفة روحه وكثرة هذيانه الذي جعله غير بعيد عن الجنون .
فالتفت الى الامير وقال له : « مر بان تقف الرجال صفاً من نبع القاع الى
بيت الدين وبان يحفر كل رجل ذراعاً واحداً امامه ثم يوصلون الحفائر
فيكون عندك قناة من النبع الى قصرك » فكان ان وجد اقتراح
المجنون صائباً وهكذا تم المشروع بحيث انطبق المثل المأثور : « اخوت
يحكي وعاقل يفهم » .

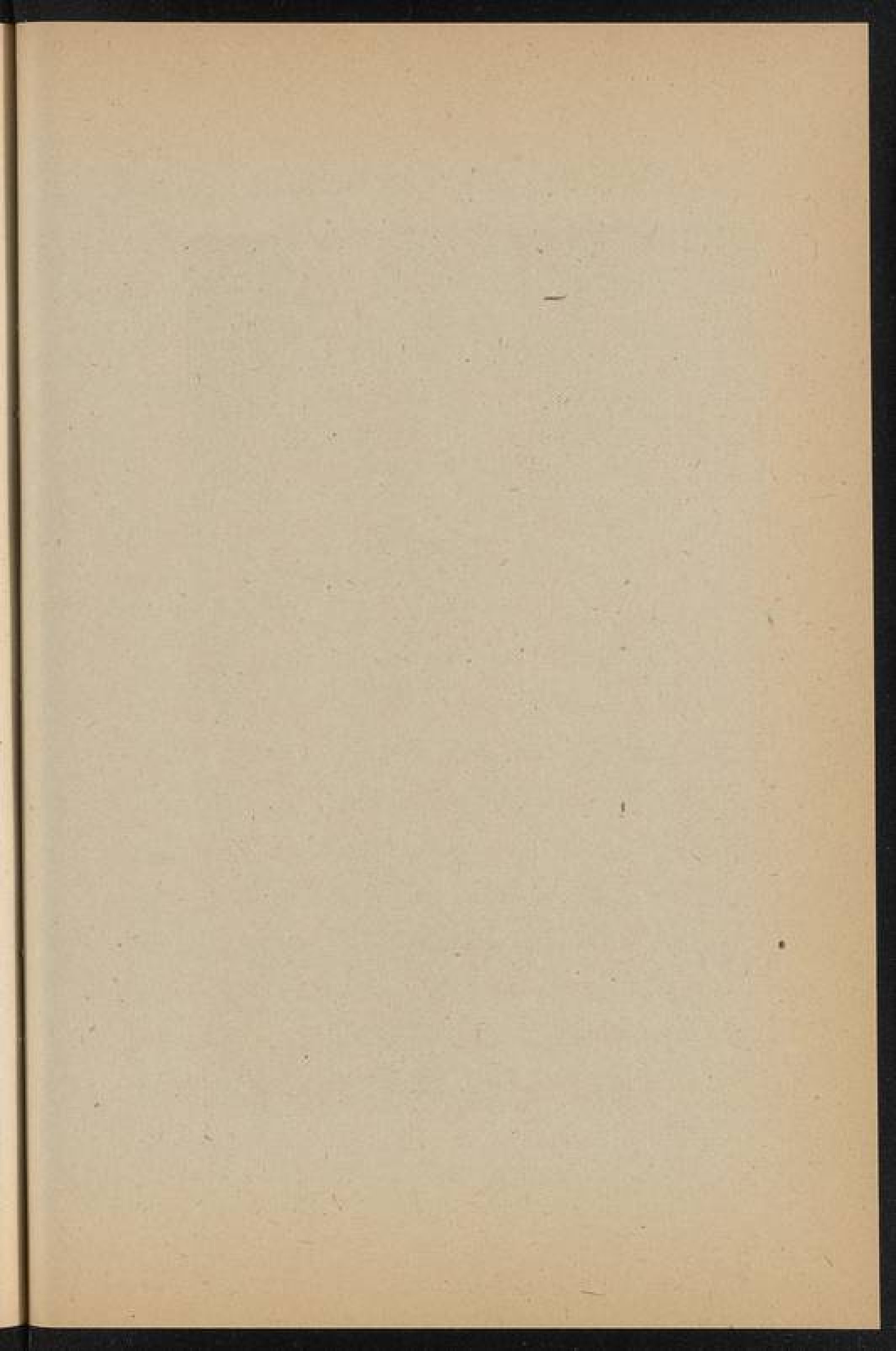
الاول في ابطال عادات قديمة في الحداد

لما توفي الامير حسن اخو الامير بشير في غزير سنة ١٨٠٨
حضر الامير بشير اليها وحضر اعيان البلاد لتقديم واجب التعزية
(الاخذ بالخاطر) « وقد كان الامير بشير ابطل تلك الاحتفالات التي
كانت تصنفها اعيان البلاد في المحلات ، مثل فرد البيارق والمناداة وقلم
الخيل بالسيوف المشهورة وندب العربيات ووضع شخص من ثياب على
النعش كهيئة الاموات ويدورون به رافعينه على الاكتاف ويدوم
ذلك الحال سبعة ايام وسبعة ليال ويمتنع اهل البيت عن غسل الثياب
ويرخي اصحابه العمائم بالرقاب ويبطلون الحلاقة اربعين يوماً... وقد كان
الامير تفوه بابطال هذه الاحتفالات التي ينتج منها الاعتراض على حكم
رب السماوات . وحين نفذ المقدر بوفاة اخيه امر باثبات ما كان عازماً
عليه . وسن هذا الامر في البلاد . وسوف تتشبه بهذه الايراد اكابر



سراي بيت الدين على عهد الامير بشير

(من مجموعة مديرية الآثار)



البلاد ويبطل احتفال الحداد » (الغرر الحسان ٢ : ٥٣٣) ولما توفيت زوجته الاولى الست شمس سنة ١٧٢٩ امر ان يصير دفنها بدون اقامة تلك الاحتفالات التي كان مشدداً بمنعها .

الفصل الثالث

سطوة الامير خارج لبنان

حكم شرشل

عظم نفوذ الامير في لبنان وخارجاً عنه فعز اللبناني وارتفع شأنه اينما حل ، بل كانت الباشاوات والاتراك اصحاب الولايات العثمانية المجاورة مثل دمشق وصيدا وطرابلس والبقاع وعكا يلجأون اليه لما كانوا يعجزون عن قمع ثورة في بلادهم او ردع العصاة . وكان بطش الامير بحكمته وبفضل الجيش المنظم الذي ذكرناه يخضد من شوكة المتمردين ويعيد المياه الى مجاريها . وقد توفق الى توطيد الاستقلال الداخلي في لبنان وكاد يتم له النفوذ بالاستقلال المطلق عن دولة الاتراك لولا عقبات عظام لا محل لذكرها الآن حالت دون ذلك . الا انه وسع حدود لبنان فاعاد اليه بيروت والبقاع وبعلبك ووادي التيم التي كانت سلخت عنه عسفاً وجوراً . ومما لا ريب فيه ان جهوده هذه الجبارة كانت ولا شك الاساس المتين الذي بني عليه استقلال لبنان الناجز في

العهد الحاضر مع جهود الامير العظيم فخر الدين المعني وجهود بطل لبنان يوسف بك كرم وبهذا الشأن يقول الكولونيل شرشل :

« ذاع صيت الامير بشير في انحاء سوريا جمعاء وانتشرت معه الطمأنينة حتى في ابعد الاقطار وكانت هيبة سطوته ونيل حمايته بمثابة حصن منيع بحيث عم الاعتقاد ان الذين يشملهم الامير بنظره او يتخذهم تحت كنف حمايته باتوا بمأمن من اذى اخصامهم ، فاصبحت من ثم بيت الدين تزخر بالقادمين اليها من كل الجهات . فمنهم آتون لطلب وساطة الامير بينهم وبين حاكمهم الساخط عليهم ، ومنهم رجال من مشايخ العرب عجزوا عن تأدية الضرائب الباهظة وتقديم المغارم التي كان يحملهم اياها الباشاوات ، ومنهم مسيحيون هاربون من سوء معاملة المسلمين القاطنين في بلدتهم ، ومنهم اناس مثقلون بالديون اتوا يسألون مقابلة الامير وهم ينتظرون دورهم بلهف وبفارغ الصبر موقنين ان مصيرهم في قبضة يده... وهم لعمري لم يكونوا في ذلك على خطأ لان مساعدة الامير كانت عاملا فعالا تميل كفة النصر حيثما مالت بين المحاربين او المنازعين من الحكام كانوا اومن الرعايا . وكانت ظروف الحال تزيد مركز الامير قوة وخطورة » .

هذا بعض ما شاهده المستر شرشل ودونه ليطلع عليه رجال دولته اولا ويحفظ في تاريخ الشرق . وشهادته قيمة جلى لان الدولة التي كان معتمدها كانت غير راضية عن سياسة الامير بشير لا سيما وانه كان قد عقد معاهدة مع محمد علي باشا حاكم مصر ورفض ان يعقد

معاهدة مع الانكليز . ثم اننا تكملة واثباتاً لما دونه الكولونيل شرشل عن سطوة الامير خارجاً عن لبنان نورد هنا اخباراً عن الباشاوات ولاة سوريا الذين لدى عجزهم عن قمع ثورة او رد عدو او دفع دخيل يزاحمهم على الوظيفة لم يروا عندئذ مرجعاً لهم ومنجداً الا الامير بشير. ومثلهم رعاياهم الذين التجأوا اليه لدى ايقاع الظلم بهم والتعدي عليهم. وندون ذلك باختصار نقلا عن الغرر الحسان وتاريخ الاعيان وغيرهما .

الامير بشير والوهابيون

الوهابيون جماعة من العرب ينتمون الى رجل اسمه محمد عبد الوهاب ، ولد في نجد في بلاد العرب ونشأ وقال بواجب اصلاح الاسلام واتباعه « يعتقدون بوجود الخالق لا غير وينكرون كل ما دون ذلك من نبي او رسول او فرض او سنة الى غير ذلك » (الغرر الحسان) فاستولوا على البلاد العربية حيث نشروا تعاليمهم وعصوا على الدولة التركية واستحوذوا على مكة ونهبوا الكعبة وارهقوا الحجاج بالضرائب والمغارم فاغضبوا المسلمين عامة . ثم زحفوا الى بلاد حوران « فسيرت الدولة جيشاً لمقاتلتهم وسلمت قيادته الى كنج يوسف باشا والي دمشق فاخفق في حملته وعاد الى مركز ولايته ساخطاً فاعتاض عن عن فوز لم يحرزه بتجديده اوامر الخليفة المتوكل المنسوبة الى عمر بن الخطاب ، واما المتوكل (هو خليفة عباسي في منتصف القرن

التاسع للمسيح) فأوجب على النصارى واليهود لبس الثياب المعتمة والوقوف بذل امام المسلمين وخفض اصواتهم في مخاطبة ساداتهم وامر بشنق اي مسيحي كان احتذى بابوجاً اصفر وحرم عليهم الخمرة وكل المشروبات الكحولية ونهى نساءهم عن لبس المجوهرات وحرم عليهم ان يركبوا دابة مسروجة وان ينقشوا خواتمهم باللغة العربية او يتشبهوا بملابس المسلمين لا من قالوسيه ولا عمامة ولا شي آخر او يتكلموا بكلامهم او يكتبوا بكتاباتهم ، ولا يطلع احد منهم على منازل المسلمين ، ونهاهم عن ان يحدثوا لا ديراً ولا كنيسة ولا صومعة راهب ولا يجددوا ما دثر من كنائسهم ولا مكان جانبها قريب لعمار المسلمين وعن ان يقرعوا ناقوس داخل كنائسهم الا قرعاً خفيفاً ولا يرفعوا اصواتهم وتلحينهم في صلاتهم داخل كنائسهم ولا امام امواتهم وامرهم ان مر عليهم احد المسلمين ان يقبلوه ثلاثة ايام بلياليها ويقدموا له كل ما يلزمه ... الى غير ذلك من النواهي والاوامر الغريبة الشكل التي يذكرها بكاملها : (الامير حيدر صاحب الغرر الحسان ج ٢ ص ٥٢٥ ، لامنس مختصر تاريخ سوريا ٢ : ١٣٦ ، وب . غالب المكرزل صديقة ومحامية ١ : ١٣٦ ص ١٧٥) وهو فعل ذلك لغاية في النفس لم تخف على احد وقد يكون تصرفه هذا تزلفاً للوهابيين . فعظم من ثم شأن الوهابيين الى انهم في سنة ١٨١٠ جاوزوا حدود سوريا وتهددوا دمشق فخشيهم والي دمشق المذكور وارسل الى والي عكا سليمان باشا يستنجده فنهض هذا من عكا الى طبريه ، وقد استكبر الواليان قوة

الوهابيين فارسل والي عكا يلتمس نجدة الامير بشير الذي لم يرفض سؤاله وسار بجيوشه اللبنانية الى طبريه، وقبل وصوله اليها التقته عساكر سليمان باشا بالطبول والزمور واطلاق البنادق حتى وصل الى جانب المدينة فوجد الخيام قد نصبت له وكانت نحو ٤٠٠ خيمة سلطانية. ففوض له سليمان باشا القيام بامور الحملة وسلمه كلما يلزم لتدبيرها.

« وبعد ثلاثة ايام ورد الخبر برجوع العربان الوهابيين عن تلك الديار بعد ان فعلوا افعالا بربرية في حوران » (الغرر الحسان ص ٥٥٧) يذهلك هذا الانهزام المعجل وتعجب من مقدار سطوة الامير بشير متى عرفت ماكان عليه الوهابيون من القوة والجرأة فان الدولة لم تقدر على اخضاعهم الا بعد حملتين كبيرتين طالت مدتها نحو سبع سنوات (١٨١١ ـ ١٨١٨) عهدت بهما الى حاكم مصر محمد علي باشا فقاد الاولى ابنه طوسون باشا ولمناسبة ارساله بهذه الحملة عمل محمد علي باشا على اهلاك المماليك. وقاد الحملة الثانية ابنه ابراهيم باشا والقي القبض على زعيم الوهابيين الامير الباسل عبدالله ابن سعود « فاذن له بالمثول بين يدي محمد علي باشا وتقبيل يديه فترحب به كثيراً لانه كان يعجب من جسارة الوهابيين ثم سأله ما ظنه بابراهيم فاجابه قائلا انه قد قام بواجباته ونحن قمنا بواجباتنا وهكذا اراد الله. وارسل الى الاستانة فطافوا به في اسواقها ثلاثة ايام ثم قتلوه (تاريخ مصر لزيدان ٢ ص ٢٣٥)

وقد هلك في هاتيك الحملتين عدد لا يحصى من الرجال فتأمل.

ولدى عودة الامير من هذه الحملة الى لبنان هنأه المعلم نقولا الترك

بقصيدة طويلة مثبتة في (الغرر الحسان صفحة ٥٦٠) هذا مطلعها :

عرا الناس خطب فادح لا يقدر   اثارته اوغاد من البدو فجر

ومنها :

فلبى الندا بحر الندى قاهر العدى
شهاب الهدى ذاك السعيد المظفر
بشير الملا بالنصر واليمن والعلا
امير به اعتز الولا والتأمر

ومنها :

وتم لهم نصر من الله مقبل
بوجه ابي سعدى وفيه تبشروا

الامير بشير ويوسف باشا الكنج

على اثر انهزام الوهابيين من ضواحي دمشق اسر سليمان باشا والي عكا الى الامير بشير ان قد اتاه امر سلطاني بتنصيبه واليا على دمشق بدلا من يوسف باشا الكنج ، وانه يخاف ان هذا لا يسلمها طوعا لانه كثير المال والرجال بحيث لا يقدر سليمان باشا على اغتصابها فان رضي الامير ان يساعده لاستلامها سار الى دمشق والا رد الفرمان سرا الى الدولة . فوعده الامير بالمساعدة وذهب الحليفان الى دمشق ولما بلغاها حضر اليهما وفد من اعيانها فقال لهم الامير : « خير لكم

ان تسلموا لسليمان باشا والا فسأجلب عليكم عساكر مثل قطع الغمام ولا احول حتى اسلمه المدينة ولو خرابا فان قبلتم نصيحتي فاطردوا يوسف باشا من عندكم ولا تلقوا أنفسكم بايديكم الى التهلكة » فاضطرب الدمشقيون وطلبوا مهلة ثلاثة ايام الا ان يوسف باشا ابى التسليم فحاربه الامير بشير وسليمان باشا وكسراه فولى هاربا ودخلا المدينة بين علائم الانتصار .

وفوض سليمان باشا الى الامير بشير جميع الامور والتدابير واسناد الوظائف الى من يريده في كل الأنحاء السورية . فقام الامير بهذه المهمة احسن قيام ثم رجع الى لبنان ظافرا كما تقدم .

فتح قلعة سانور

كان موقع هذه القلعة بين مدينة نابلس (فلسطين) وقرية جنين بناها آل الجرار من نابلس وجعلوها حصنا هائلا يلجأون اليه عند الاضطرار تملصا من ظلم ولاة عكا ، ولشدة مناعتها واتساعها كانوا يقيمون فيها آمنين الشهور والسنين بعيالهم وخدمهم وخيولهم واموالهم بعد ان يمونوها بما يلزمهم من الزخائر والقوت والماء ، وطالما حاصرها ولاة الاترك وارتدوا عنها خائبين حتى ان الجزار نفسه مع جبروته حاصرها سنة ١٨٠٢ وارتد عنها خائبا . وفي سنة ١٨٢٩ انتقض قوم من النابلسيين على والي عكا عبدالله باشا وتحصنوا في قلعة سانور فحاصرها

عبدالله باشا وافرغ كل قنابله وكان الفشل نصيبه فبلغ به الغضب والحنق ان اقسم بالانتحار ان لم يأخذ القلعة ولما ظهر عجزه وانفضح عينه لم يجد من ينجيه من العار والموت غير امير لبنان الشهير ورجاله البواسل فكتب الى الامير يتملقه ويستنجده فلباه الامير وقدم برجاله الى عكا حيث التقاه الوالي باعظم مظاهر الاجلال . ثم اقبل على القلعة حيث كان عسكر عبدالله باشا فاخذ الامير يدير العساكر وضرب الحصار على القلعة فكانت النساء تغمس اللحف بالزيت وتشعلها وترميها لينظر النابلسيون عسكر الامير ويطلقوا الرصاص عليه والامير يضيق عليهم من كل جهة فوقعت رهبة الامير في قلوب النابلسيين وبدأوا يستسلمون فئة بعد فئة . وكان عدد من مشائخ نابلس في عكا فاستدعاهم عبدالله باشا واخذ يهددهم قائلا: « اما تعلمون ان رجال الامير اللبنانيين مشهورون بالشجاعة والبطش واميرهم هذا ما سار في مهمة الا وايده الله فيها ونصره على الاعداء . . اما سمعتم في قرية عرطوز كيف شتت عساكر يوسف باشا الكردى والي دمشق وكيف ظفر بعساكر درويش باشا في ريشيا وهزمهم الى دمشق وكيف ظفر في واقعة المزه وكيف شتت شمل عساكر المختاره » فلما سمع المشايخ كلامه ارتعدوا وجعلوا يعتذرون وتخابروا مع ذويهم بامر الصلح ولم يلبثوا ان سلموا القلعة واستسلموا على يد الامير وقد دام الحصار ثلاثة اشهر فدك الامير عندئذ القلعة من اساسها وهدم آبارها ورجع مظفرا . وعد فتحه لتلك القلعة المنيعة من امجد الصفحات التي خطت في تاريخ لبنان ومن اكبر مظاهر الصولة

التي وصل اليها هذا الجبل في عهده .

والله لست اقدر على امير الجبل

في شباط سنة ١٨٣٢ وصل الى دمشق المطران متى نقار (من السريان اليعاقبة) حاملا فرمان بطريركه محاولا استرجاع كنيسة مار بهنام من السيد يعقوب حلياني مطران السريان الكاثوليك . وراح يتهدده ويتوعده بمرافعته الى والي دمشق فاستشار المطران يعقوب اعيان جماعته كآل شيحا وحبيش وابي حمد واليان ولطفي فاشاروا ان ينهزم الى لبنان ريثما تنجلي الامور وتهدأ الخواطر .

استرسل المطران متى في العداء وقصد الكنيسة في نفر من اصحابه فكسروا الباب ودخلوا عنوة ورشوا الوالي فقبض على ٢٥ شخصاً من اعيان السريان الكاثوليك والقاهم في السجن يريدهم على احضار مطرانهم الى ديوانه .

فر المطران يعقوب الى لبنان طبقاً لمشورة ابنائه ولاذ بالامير بشير الكبير في بتدين وتوسل اليه ليحميه ويكشف عنه ضيم خصمه فرطب الامير قلبه ووعده بالدفاع عنه بكل طاقته مهما كلفه الامر .

ما مر قليل حتى كتب والي دمشق التركي الى الامير اللبناني يطالبه بالمطران فكتب له الامير جواباً مبهما . فكرر الوالي الطلب ملحاً على الامير ليلبي طلبه .

توقدت عند ذلك جذوات النخوة اللبنانية في قلب الليث العظيم فكتب الى الوالي عبارة ذهبية هذا نصها : « بما ان المطران يعقوب استجار بي ودخل تحت حمايتي فلست اسلمه ولو هجم علي الجبل كله من رأسه الى اسفله ».

فما كان من الوالي الا ان استدعى المطران متى واصحابه وقال لهم : « والله لست اقدر على امير الجبل ».

اقام المطران يعقوب شهراً في ضيافة الامير بشير معززاً مكرماً ريثما خمدت الفتنة فعاد الى دمشق واسترجع كنيسته وما عتم ان قصده المطران متى خصمه ووافقه على عقيدته الكاثوليكية وتولى رعاية ابرشية حمص وحماه والنبك وعاش كلا المطرانيين متآلفين متفقين يفرغان ما لا مزيد عليه من الهمة والنشاط في رعاية ابرشيتيهما (البشير).

الامير بشير والوالي الدخيل

مات الجزار سنة ١٨٠٤ فتنفست البلاد الصعداء حكامها ورعاياها وكان من عهد وجيز قد توصل هذا الطاغية بدهائه الى ان عينته الدولة واليا على دمشق مع احتفاظه بولايات صيدا وطرابلس وفلسطين فادعى اسماعيل باشا سر عسكر الجزار ان هذا كان بايعه الولاية من بعده فنصب نفسه خلفا له وامر بالمناداة باسمه وكتب يبشر عمال الولاية بارتقائه المنصب واستلامه الاحكام . فلم يخف امر اختلاسه على عمال

الدولة ولاسيما على الامير بشير الذي استدرك الامر بحكمة واحتاط للطوارىء منعا لما خشي وقوعه من الاضطرابات من جراء هذا الحادث فأمن الطرق بين بيروت والشام وسكن روع مسلمي بيروت الذين كانوا عادوا دروز الجبل واوجسوا منهم شرا . ولم يلبث ان استلم كتابا من سليمان باشا حاكم دمشق من قبل الجزار يستشيره ويوصيه بصيانة الطرق والمحافظة على المدن فاجابه الامير ان الطرق مصونة وانه لا يعترف باسمعيل باشا لانه اخذ المنصب دون امر الدولة . فارسل حاكم دمشق هذا الجواب الى اسطنبول . فاكبر الباب العالي عمل الامير وكتب اليه مادحا امانته وحسن تدبيره واعدا اياه خيرا ويخبره باقامة ابراهيم باشا خلفا للجزار . فعاون الامير الوالي الجديد في قتال المزاحم الدخيل ومكنه من استلام منصبه

الامير بشير والواليان المتنازعان الولاية

وفي سنة ١٨٢١ حدثت منازعة شديدة وحرب هائلة بين درويش باشا والي دمشق وعبدالله باشا والي عكا وصيدا على اثر اعلان اذاعة درويش باشا ، وهو ان الباب العالي اقامه واليا على صيدا علاوة على ولاية دمشق فادعى عبدالله باشا ان الدولة عينته هو واليا على دمشق مع الاحتفاظ بولايته على عكا وصيدا وفلسطين وطرابلس وابرز للعيان فرمانا سلطانيا يثبت قوله ، واستعان بالامير بشير لتنفيذ الاوامر

السلطانية فزحف الامير برجاله على عساكر درويش باشا في المزه قرب الشام فهزمهم واكرههم على الخروج من دمشق . الا ان الامير لم يسمح لرجال عسكره ان يدخلوا الشام حفظا لجوارها وصيانة لحرمتها فرجع عسكره الى المزه واقام في سهلها. غير انه بعد مدة اكتشف السر المكنون وهو ان الفرمان الذي اظهره عبدالله باشا كان هو نفسه قد زوره فغضبت عليه الدولة وارسلت عضدا قويا لدرويش باشا فاستلم الحكم . اما الامير بشير فسافر عند ذلك الى مصر فاحسن استقباله حاكمها محمد علي وقال له الكلمة المشهورة : « لم يدخل مصر اعز منك » وفي تلك الزيارة جرت بينهما المعاهدة التي سبقت الاشارة اليها فيما يخص مقاصد محمد علي باشا السياسية في الديار الشامية

الامير بشير ودروز حلب

في قرى كثيرة من جهات الشوف في لبنان يسمع بين سكانها الدروز اسم (فلان الحلبي) ترى ما اصل هذه التسمية ؟ ينسب اصلها الى حسن سياسة الامير بشير واخبار الطمأنينة في لبنان التي كانت تجاوزت حدوده بمسافات شاسعة .

ذلك انه كان في الجبل الاعلى التابع ولاية حلب اربعمائة عائلة من الدروز فحدثت في سنة ١٨١١ فتنة بينهم وبين اهالي تلك البلاد الذين كانوا يكثرونهم عدداً . فصارت بعدها تقع التعديات الكثيرة والمظالم

على الدروز فاستأنسوا بالامير بشير الذي ارسل اليهم معتمداً من قبله فارس الشدياق بجماعة وارسل الشيخ بشير جنبلاط رجلا درزياً اسمه حسون ورد وكتب الامير بشأنهم الى حكام تلك الجهات . ولم يلبث معتمدوه ان انقذوا اولئك الناس واحضروهم الى لبنان ففرقهم الامير للسكنى بالقرى اللبنانية بين الدروز وامر لهم بمائة الف درهم لاجل معاشهم ولذلك بقي بعضهم ينتسب اسمه الى وطنه القديم ومثل هذه الاسماء كثير بين الشعوب .

الامير بشير وطائفة الملكية

في سنة ۱۸۱۷ وما يليها ثارت اضطهادات في الشام وحلب على الروم الملكيين لسبب انضمامهم الى الكنيسة الرومانية وقد استحصل اخصامهم على فرمانين سلطانيين ضدهم يؤمر فيهما الولاة بتنفيذ الاوامر بشدة ، ففزع الملكية الى جبل لبنان فاستقبلهم الامير بشير وساعدهم وسهل لهم الاقامة في القرى اللبنانية مثل دير القمر وزوق مكايل في كسروان ، وفي هذه البلدة تكونت النواة الطائفية للملكيين المنهزمين وقد عضدهم كثيراً ابناء الاسرة الخازنية النبيلة ووقفوا عليهم الاوقاف كما هو مشهور .

امرأة وحدها في وادي القرن

نادرة تلامس الموضوع ستأتي في الفصل ٣ من هذا الجزء

فمن الحوادث التي اوردناها تأييدا لقول الكولونيل شرشل في امتداد سطوة الامير خارجا عن لبنان ومن حوادث غيرها لم نسردها لا يتمالك القارىء من مشاركة الاستاذ فوءاد افرام البستاني في حكمه على عهد الامير بقوله (تاريخ لبنان صفحة ٥٨ و٩٠) :

« وهكذا فان الجيش اللبناني اصبح في الربع الاول من القرن الماضي اعظم قوة عسكرية في جميع الاقطار الشامية وامين اقوى الامراء قاطبة » ويلامس موضوعنا ما اورده الاستاذ نفسه عن لبنان بقوله انه « كان ولا يزال ملاذا للاقليات العنصرية والدينية من الموارنة الى المردة الى الاسماعيلية الى الدروز الى الشيعة في القرون الوسطى الى الملكية الى السريان الكاثوليك الى الارمن في عصرنا المتأخر »

ومما يحسن ان نختم به هذا الفصل سطوة الامير في الخارج اذ ان في ايام حكمه ارتفع شأن اللبناني واعتز اسمه في انحاء سوريا حتى امر حكامها باعفاء ابناء لبنان اثناء مرورهم واقامتهم في مدن سوريا من دفع الرسوم المطلوبة فيها من الغرباء . ومما دونه التاريخ عن تقلبات الزمان وعبره انه بعد ان كان الامير بشير وسلفه الامير يوسف يلقيان في سجن عكا صار الامير بشير حين توجهه اليها يلقى العساكر موفدة الى ملاقاته مع الموسيقى على مسافة ساعات من المدينة وتطلق له المدافع اجلالا لقدومه ويخرج الوزير بالذات لاستقباله

الفصل الرابع

الامير بشير واصحاب الاقطاع والولاة

توحيد السلطة في لبنان

ان الحكم الاقطاعي ساد في لبنان منذ ايام الصليبين وقد اثبته السلطان سليم الاول الذي اعترف بامتيازات لبنان واقرها سنة ١٥١٦ ولما استلم الامير بشير الاحكام كان اهم اصحاب الاقطاع (المقاطعجية) في لبنان الامراء بنو شهاب والامراء اللمعيون والمشائخ بنو ضاهر وبنو حبيش وبنو الخازن وبنو الخوري صالح وبنو الدحداح وهم مسيحيون، الا فريقاً من آل شهاب كانوا مسلمين وفريقاً من آل بللمع كانوا دروزاً، ثم الامراء بنو ارسلان والمشائخ بنو جنبلاط وبيت ابي نكد وعبد الملك وتلحوق من الدروز والمشائخ الحماديه المتاوله، وقد ادى ذوو الاقطاع خدماً جليلة للبنان لذلك كان الامير بشير شديد المحافظة على امتيازاتهم محافظته على كل العادات والتقاليد اللبنانية الحميدة.

ولكن لم يخف عليه ما كان كثيرون منهم يثيرون من الفتن ومه يبدون من التحزبات الهدامة ولا سيما عدم امانة البعض منهم مما اوغر صدره عليهم وعزم ان يقتلع اصل العلة وهو ان يلغي امتيازات الاعيان الذين كانوا يسيئون استعمالها وبالاخص لان تعددت لديه الشكاوي

والتذمرات من هؤلاء بسبب ظلمهم ابنــاء الشعب واستبدادهم بهم فاستعان الامير ببعضهم ضد البعض الاخر بحكمة ودهاء « فنكب بني جنبلاط بكبيرهم الشيخ بشير اغنى رجال الاقطاع وذلك لما عظم شأن الامير ولم يتسن للشيخ تحقيق سيطرته على البلاد كما كان يتوخى اخذ يسعى للايقاع بالامير مع بعض اقاربه . فوقعت النفرة واسرع الامير فسعى به لدى الباشا في عكا فقتله « تاريخ لبنان الموجز للبستاني ص . ٨٩٠» ورفع يدا كثر اصحاب الاقطاع عن مقاطعاتهم واقام عليها رجالا من اقاربه وخاصته موقتين لعزلهم حين يشاء ، واوقف غيرهم من الاقطاعيين عند حدود معينة وجعلهم مسؤولين عن كل ما يحدث في اقطاعاتهم ، ومنع ظلمهم وعاملهم بالشدة والصرامة الى حد قيل عنه كان عادلا مستبداً فعم الامن في البلاد وتوحدت السلطة وعز مركز الامير ..

ولما امن الامير اخلاص اصحاب الاقطاع صار بوسعه ان يعزز جيشه بواسطتهم فاصبح بامكانه ان يجرد الى ساحة القتال ما لا يقل عن خمسة عشر الف مقاتل من اللبنانيين ذاعت شهرة بسالتهم ممــا جعل للامير سطوة خارج لبنان عظيمة عز ان يوجد لها مثيل على ما رأيت في الفصل السابق ..

لكل ذي كرامة كرامته

ان ايلاء كل ذي حق حقه وكل ذي كرامة كرامته هو عنوان

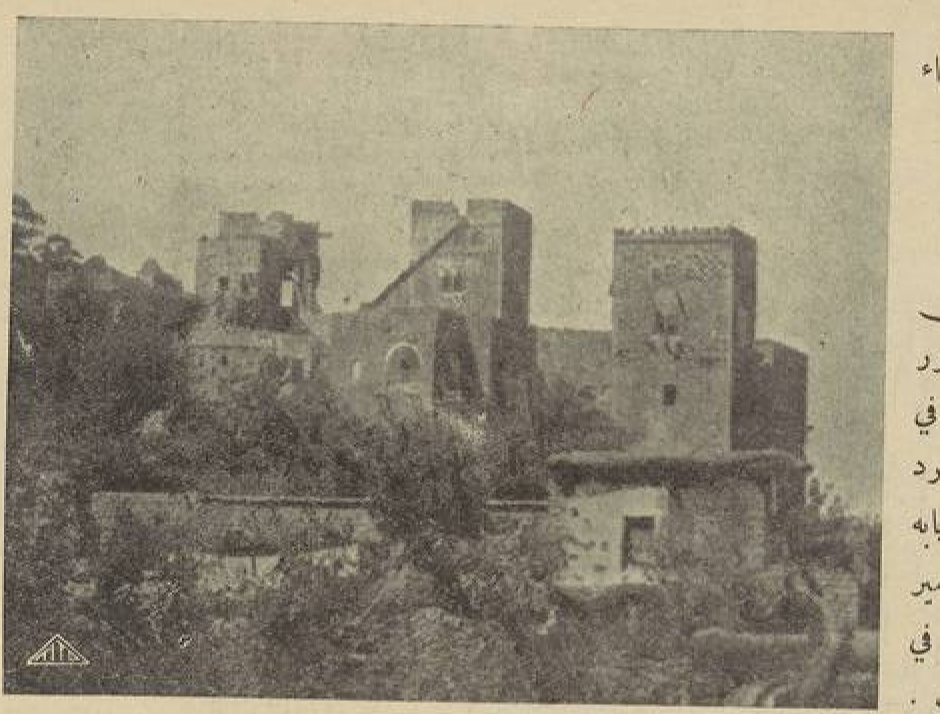
الكمال في الحكام وقد تجلت هذه الحلة في معاملة الامير بشير للاعيان الامناء وبهذا الصدد يلذ لنا ايضاً الاستشهاد بالكولونيل شرشل الذي بعد ان وصف وقار مجلس الامير وجلوس الامراء والمشايخ متهيبين قال ... « وكان الامراء والمشايخ من دروز ونصارى الآتين لتقديم واجب الاعتبار له يقفون امامه مكتوفي الايدي الى ان يشير اليهم بالجلوس . ولكنهم لم يكونوا يجلسون الا بعد ان تكرر لهم الاشارة مرات عديدة . الا انه بالوقت نفسه كان يستقبل هؤلاء الزعماء بغاية ما يكون من الانس والترحاب والاعتبار فيقف لهم لدى دخولهم عليه مبدياً نحوهم آيات الادب والكياسة التي يتلقاها القوم دوماً بالارتياح وزد انه لم يكن ليبخل بهذه المظاهر حتى على الذين كانوا يتوقعون منه اشد امارات الغيظ والاستياء . »

اما بشأن علاقاته مع والي عكا الذي كانت تأتي الخلعة على يده وترسل الاموال الاميرية بواسطته الى الدولة فقد كان الامير في الابتداء يعمل على ارضائه اتقاء شره ومنعاً لتدخله في شؤون لبنان . « نجد للامير في اول عهده في الحكم غلطات صادرة عن قلة حنكته واندفاعه وراء حب الرئاسة وحفظ الكرامة لئلا ينزل عن الحكم مرغماً لكن الايام علمته فاصبح يفضل اغضاب الوالي على ظلم رعاياه » .

هذه ملاحظة ابداها مؤرخ لبنان المدقق ب . قرألي في كتابه (الامير بشير والدولة العثمانية ص ١٠) ونظنه فيها يشير الى ما كان يظهره جباة الاموال الاميرية من الشدة والقساوة في الشعب تنفيذاً

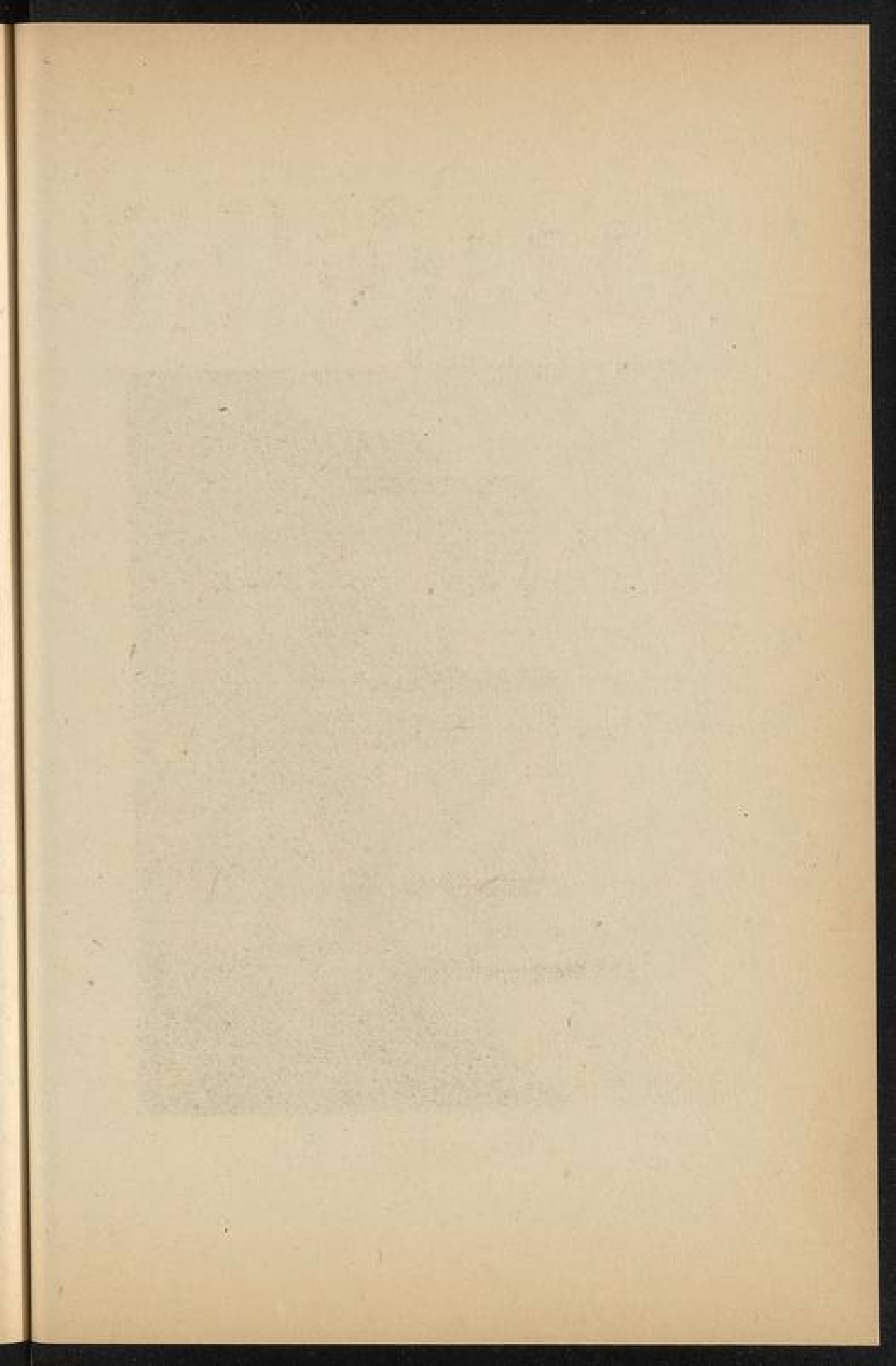
لاوامر الامير بشير الذي كان يضطر الى ارسالها الى الطاغية المشهور احمد الجزار والي عكا كما تقدم . من ذلك انه لما شنق الجزار الامير يوسف شهاب وألبس الخلعة للامير بشير اخذ يطالبه بالمال الذي تبقى له من قبل . فالتزم الامير ان يزيد مال الميرة ستة اضعاف فثقل هذا جداً على كاهل الشعب المسكين وعلت تشكياتهم وبلغت آذان البطريرك الماروني يوسف التيان الذي وقف اذ ذاك وقفته المشهورة في الدفاع عن حقوق ابنائه حتى انه ، على ما جاء في كتاب (لبنان) تأليف ي . داغر التنوري صفحة ٣٩٠ نقلا عن مخطوط كتب في عهد الامير ، لما رأى البطريرك ان النصح الابوي لم ينجح في ردع الامير بشير عن ارهاق الشعب بتحصيل المال ستة اضعاف ، كتب البطريرك اليه مهدداً باطلاق الحرم الكنسي عليه ان لم يخفف الاثقال عن الناس فعدل الامير عن الشدة ومال الى اللين .

هذا فيما يخص علاقات الامير مع والي عكا اما بقية الولاة فلم تكن له معهم ادنى علاقة ، وكانوا لا يجسرون على التعدي على لبنان بل اضحوا بعد مدة وهم بحاجة الى مساعدة الامير وسطوته لاخضاع الثوار من شعبهم كما رأيت مطولا في الفصل السابق .



قصر الامراء
اللمعيين
في صليما

وهو من
انخم قصور
الاقطاعيين في
لبنان وقد ورد
ذكر اربابه
الموالين للامير
بشير مراراً في
هذا الكتاب .



الفصل الخامس

علاقات الامير مع الرؤساء الروحيين

زيارة البطريرك يوسف حبيش للامير بشير

واما من جهة علاقاته مع الرؤساء الروحيين فقد كانت علاقات تجلة واحترام يحافظ على كرامتهم وينتصر لهم ويساعدهم عند اللزوم . ويجدر بنا في هذا الصدد ان ننقل للقارىء حادثاً تجلت فيه اخلاق الامير بشير من هذه الناحية بابهى مجاليها وهي زيارة البطريرك يوسف حبيش للامير في بيت الدين . وكان الداعي الى تلك الزيارة ان الامير دعا البطريرك ان يحضر الى بيت الدين لبعض الشؤون الهامة بتعزيز الموارنة في جنوبي الجبل وليقوم بنفسه بحفلة تكريس الكنيسة الجديدة الجميلة التي بناها الامير بجوار القصور التي شيدها هنالك له ولاولاده وبنى بجوارها داراً لسكنى الكاهن الذي يقوم بخدمتها وقد اتم بناء الكنيسة قبل القصور .

وقد نشر مؤرخ لبنان المدقق ب . قرألي فصلا رائعاً في هذه الزيارة نقلا عن المصادر الثابتة يجدر بنا درجه هنا نقلا عن جريدة

البيرق الغراء ٢٥ تشرين الاول ١٩٤٩ « وكان قد شيد في بيت الدين كنيسة على نفقته الخاصة، فسعى المطران البستاني لدى الامير بان يدعو البطريرك الى تدشينها، فيفسح المجال بينهما للتفاهم التام في سبيل مصلحة الطائفة والدين. ولما نزل الامير عند هذه الرغبة قصد البطريرك الى بيت الدين ببعض خاصته، وبحشد من الامراء والمشايخ والرجال، فجرت له في الطريق استقبالات حافلة حارة، كان لها التأثير الطيب لدى الامير، وجعلته يثق من مكانة البطريرك الشعبية والتفاف اعيان البلاد حوله. فاوفد لاستقباله على جسر القاضي اميرين من انجاله بثلاثمائة فارس رافقوه، حتى اذا بلغ السراي خف بنفسه للترحيب به على الباب الكبير، ومشى قدامه الى قاعة العامود حيث اجلسه بجانبه وامر ان يقدم اميران القهوة والشبق للاثنين في آن واحد. ثم تقدمه الى جناح الحريم، حيث انزله زيادة في اعتباره، ودخل امامه الى الغرفة المعدة لنزوله. ولما اصبح داخلها اغلق الباب وانحنى على يده فقبلها وهو يقول: « لقد استقبلتك في قاعة العامود كحاكم البلاد، والان استقبلك في بيتي كاحد ابنائك ». فانحنى البطريرك عليه وعانقه ثم جلسا ساعة تفاهما في اثنائها على جميع المسائل المعلقة بينهما.

« ولما حان وقت الغداء مدّ له السماط في قاعة الحريم وجلس حوله هو واسرته من امراء واميرات. حتى اذا انتهوا وجاؤوا للبطريرك بالابريق والطشت لغسل يديه، حسب عادة ذلك العهد، مسك الامير الابريق ليصب الماء بذاته. فتمنع البطريرك مراعاة لمقامه. فانتهره

بقوله : « انت اليوم ضيفي فعليك ان تطيعني في كل ما يختص بالضيافة كما اني مستعد ان اطيعك بكل ما يختص بالشؤون الروحية والطائفية» . فاخذ البطريرك يستعجل ، فقال له الامير : « تمهل يا سيدنا تمهل » . ولما شاء الانصراف بعد حفلة التدشين قال له الامير : « ان ضيافة الامير اسبوعين . وانا اعفيك من اسبوع لكيلا اعطل شؤون الطائفة » وامسكه لديه اسبوعاً كاملا .

وهذه الزيارة التاريخية ذكرها ايضاً المطران دريان في « النبذة التاريخية صفحة ٤٢٥ » ويؤكد انه سمع هو نفسه روايتها من شاهد عيان صادق هو البطريرك بولس مسعد الذي كان في ذاك الحين كاتب اسرار البطريرك الحبيشي وقد رافقه في زيارته للامير . ويختم المطران روايته بهذه الفقرة : « وقد اكبر جميع الحضور تواضع الامير واخلاص خضوعه واحترامه البليغ لرئيس دينه الاعلى . وهذه الشهادة التي سمعتها انا باذني من البطريرك مسعد لا سبيل لتكذيبها وراويها شاهد عيان من اصدق الناس واطهرهم ذيلا كما هو مشهور . وقال هذا الشاهد المعتبر انه اذ اراد البطريرك ان يداول الامير في بعض الامور التي تتعلق بسلطته الدينية في جملتها سيامة مطران ابرشية طرابلس خوف حصول المشاكل من قبل بعض الخواص اجابه الامير بكل اخلاص : « اعمل يا سيدي كما ترتئي ولا تراع غير ذمتك وجانب الله وخير الطائفة فانت وحدك رئيسها وابوها والمسؤول عنها امام الديان العادل ، فلا يشاركك احد ولا يزعجك مزعج ولو كان احد اولادي ، وليس علينا

جميعاً الا الخضوع لك والتسليم بكل ما تعمله مما تراه بحكمتك آئلا لمجد الله وخير الطائفة العزيزة » .

فقد كان عند الامير امين ابن الامير بشير كاهن من عائلة خضير طامح الى هذه الابرشية ، وكان الامير امين يلح على البطريرك بسيامته عليها وهو لا يرى انه موافق لها ، والى ذلك يرمي الامير بشير بقوله السابق . وقد اقام البطريرك في ضيافته ثلاثة ايام على اجل كرامة وكان كل يوم يشهد قداسه ويتناول القربان الاقدس من يده بكل خشوع واخبات »

قضية المطران اغابيوس الرياشي

لما توفي المطران يوسف دهان مطران بيروت على الروم الكاثوليك اقيم خلفاً له الخوري يعقوب الرياشي باسم اغابيوس خلافاً للتعليمات الواردة الى البطريرك والقاصد الرسولي بهذا الشأن .

واذ اراد المطران الجديد ان يزور حاكم لبنان الامير بشير الكبير رفض هذا قبول الزيارة ، احتراماً لسلطة الكنيسة المقدسة وهو الامير الماروني ابنها الامين ، مصرحاً انه لا يمكنه اعتباره رئيساً على شعبه ما لم يرد اليه التثبيت من روميه .

اما الكرسي الرسولي فقد امره بالانسحاب من دار الاسقفية والاقامة في دار مار سمعان عين القبو المتن محرماً عليه استعمال الحقوق

والانعامات الاسقفية فامتثل خاضعاً . واخيراً اخرجه من هذا المأزق الخوري يوسف الماروني من زوق مكايل احد المعروفين والنافذين في دوائر روميه وبمساعدة السيد مظلوم سعى للحصول على التثبيت المنكر عليه فتم ذلك سنة ١٨٢٩ . (اخذاً عن مجلة اصداء الشرق الفرنسية مجلد ٦ وجه ٢٠ ومجلد ٩ وجه ٣٦٠) .

البابا بيوس والامير

اذا كان الامير عرف ان يولي كل ذي كرامة كرامته فقد اتيح له ان يشهد بفضله ويوليه الكرامة والتكريم صاحب اكبر نفوذ ادبي في العالم ، وذو السلطة العليا في الكنيسة الكاثوليكية ، اعني به قداسة البابا . فان معاصره البابا بيوس السابع بعث اليه برسالتين مثبتتين في مجموعة البراءات البابوية تاريخ الاولى ١٨ نيسان سنة ١٨٠٧ والثانية بتاريخ ١٥ شباط سنة ١٨١٧ وفي كليهما اشارة الى ما اداه الامير من الخدم الجليلة في سبيل الدين مع عبارات الشكر والتقدير والاعتبار . وبما ان هاتين الرسالتين لم يشتهر امرهما لدى العموم ننشرهما في ما يلي لانهما تزينان حياة الامير الكبير . نثبت الاولى منهما نقلاً عن ترجمة عربية قديمة واردة في كتاب تاريخ المقاطعة الكسروانية صفحة ٢٢٥ وفيها يوصي الحبر الاعظم الامير بشير بقاصده المطران بولس غندلفي الذي اقامه خلفاً للقاصد السابق المطران جرمانوس الخازن .

رسالة البابا بيوس الاول الى الامير بشير

ايها الابن النجيب والرجل الشريف السلام والبركة الرسولية .

انه اذ كان بهذا القرب قد توفي الاخ المحترم جرمانوس الخازن مطران دمشق الذي كان قداقيم منا زائراً رسولياً في نواحيكم فالتزمات خدمتنا الرسولية اقتضت ان نقيم عوضه رجلا آخر ملاءماً لكي يترأس على قضايا الكاثوليكيين خوفاً من ان يلتحق ضرر ما بالديانة المسيحية الكلية القداسة . فهذه الوظيفة ذات الثقل العظيم قد قلدناها لولدنا الحبيب لويس غندلفي الذي كنا اقناه سابقاً بمنزلة قاضي لدى المتوفي جرمانوس الخازن من كونه كلي الكفاية لتتميم التزامات هذه الوظيفة وعزيزاً لدينا لاجل صفاته الحميدة . فنوصيك بهذا الزائر بكل اجتهادنا ولا ريب عندنا بانه سيكون عزيزاً لديك لاجل فضائله ولاجل توصياتنا به . فانعطافك نحونا واحترامك لهذا الكرسي الرسولي يقنعانا ان توصيتنا بالمذكور ستفوز بفاعلية عظيمة لديك وعلى الخصوص نوصيك بالقضايا المختصة بالديانة الكاثوليكية ونتوسل اليك بان لا تكف عن صيانتها والمحاماة عنها بسلطانك واقتدارك بحسب مقتضى غيرتك وحبك نحوها . فلا ريب ان بتتميمك لهذا الامر ستحصل على نعمة من قبلنا والامر الاعظم المعول عليه هو انك ستنال مجازاة عظيمة من لدن الله ونؤمل انك ستتمم بالفعل ما ذكر بكل استطاعتك . ومن ثم بكل حب نمنحك بركتنا الرسولية عربوناً لودنا نحوك يا ايها الابن

الحبيب والرجل الشريف . اعطي برومية حذاء كنيسة القديسة مريم الكبرى تحت ختم الصياد في ١٨ من نيسان سنة ١٨٠٧! والثامنة من حبريتنا .

وقد جعل هذا القاصد اقامته في كسروان في دير مار يوسف في عين طورا كسروان ثم ان خلفه بنى ديراً شرقي زوق مكايل في المحل المسمى التراب وجعله كرسياً للقصادة ثم باع هذا الدير القاصد لودوفيكوس الى اسعد عواد من زوق مكايل وعمر عوضه ديراً في حريصه .

الرسالة البابوية الثانية الى الامير بشير

نشرتها بالطبع لاول مرة في العام الماضي جريدة البشير الغراء (المحتجبة موقتاً) نقلا عن ترجمة عربية بخط السعيد الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم الرومي الكاثوليكي الذي نقلها عن اصلها اللاتيني المثبت في مجموعة البراآت الحبرية للموارنة تحت عدد ١٩٠

من البابا بيوس السابع الى جناب الشريف الامير بشير شهاب الكلي الاقتدار فليوهب لك السلام ولتضاعف النعم الالهية .

ان فؤادنا الابوي قد استوعب ابتهاجاً عظيماً عندما تحققنا من اخوتنا بطريرك الموارنة واساقفتها مقدار وفور حسن عنايتك وملاحظتك للطائفة المذكورة نفسها ، وبكم من الاهتمام تجتهد حضرتك

بان هؤلاء يستطيعوا ان يعترفوا بشريعة الله الكلية القداسة وبحقائق الايمان الكاثوليكي بغير مانع ما اصلا . الامر الذي لا يمكن ان يتضح لدينا شيء اعز منه . ومن ثم قد انعطف حبنا نحوك الانعطاف الكلي راغبين لك السعادة الحقيقية رغبة متقدة في الغاية ، ولقد ضاعف فينا هذه الامارات الانعطافية القلبية نحوك بنوع عجيب ولدنا الحبيب يوسف السمعاني المدبر الاول للرهبانية اللبنانية الجليلة ، الذي قد حضر الى رومية من قبل بطريرك الطائفة المارونية واساقفتها واكابر شعبها ليقدم لنا على اسمهم جميعاً التهنئة وعلامات الفرح برجوعنا السعيد الى الكرسي الرسولي . وذلك حينما اخبرنا ان حضرتك كذلك قد حصلت من هذا القبيل نفسه اي من رجوعنا المذكور على سرور عظيم جداً . فنحن في الوقت عينه الذي نشكر محامدك بالمقابلة الواجبة على إظهارك شاهداً جديداً لحسن شهامتك هذه ومعروفك نحونا . ففي الوقت نفسه نرجوك بمقدار ما تعلم وتستطيع ايها الامير الجليل الكلي الاقتدار بان تكون حمايتك وصيانتك متلالئة في غاية ما يكون نحو امور الديانة الكاثوليكية في جميع مقاطعات ولايتك . ثم من حيث اننا قد سلمنا ليد يوسف السمعاني المذكور بعض اوامر منفذة الى البطريرك الماروني نفسه وبها قد سبقنا واعتنينا باصدار التدابير المختصة بنمو الايمان الكاثوليكي وبصرامة التهذيب والنظام الكنسي فنتوسل اليك باعظم نوع لكي تجتهد وتناضل بواسطة سلطانك بان تجري هذه الاوامر باكثر استعداد وقبول . واذ كان لنا ثقة وافرة في ان تكون

حضرتك دائماً مناظراً تحت حمايتك للطائفة المذكورة ولقاصدنا ولجميع الكاثوليكيين اجمالا فنحن لا نكف عن التضرع لدى الباري تعالى القادر على كل شيء والمانح الخيرات جميعها بان يفيض عليك بذاته انعامه السماوية باكثر سخاء وان يكافئك بسعادة حقيقية .

رومية في ١٥ شباط ١٨١٧ وهي السنة الـ ١٧ لحبريتنا

الفصل السادس

هل كان الامير متقلباً في دينه ؟

تقدم القول ان الامير بشير ولد مسيحياً من والدين كانا اعتنقا الدين المسيحي قبل ولادته ببضع سنوات ، وذكرنا ما كان من امر زواجه بموجب الشريعة المسيحية . وقد عاش مسيحياً راسخ العقيدة ولم يظهر من تصرفاته قط انه حاد يوماً عنها الا انه زعم بعض الكتبة من الافرنج ومن غيرهم ان الامير كان متذبذباً في دينه متقلباً ، بحيث انه كان نصرانياً مع النصارى ودرزياً مع الدروز ومسلماً مع المسلمين ، اما الحقيقة فهي غير ما وهموا لان التاريخ الصحيح يثبت ان الامير كان نصرانياً كل حياته لا شك في ثباته في دينه وعقيدته . ولدينا علاوة على ما سبق تدوينه شواهد ومستندات نذكر خلاصتها نقلا عن مقال دبجته يراعة المؤرخ المحقق صديقنا الخوري اسطفان البشعلاني ، ومما

جاء فيه :

(١) ان سياسة الامير لم تكن قائمة على دعائم الدين ولا سمع ان احد الرعايا في لبنان نسب اليه ميلا او تعصباً دينياً بل كانت سياسته ترمي الى استقلال لبنان واجراء العدل والمساواة بين الرعايا وتقرير الراحة والامن في البلاد . وان ما كان يراه الناس من تكتمه وعدم تظاهره بالدين لم يكن دليلا على تذبذب في الدين ، كما نسب اليه بعض الناظرين الى ظاهر الامور دون ان يدركوا حقيقتها ، بل ان ذلك التكتم كان حكمة منه اقتضتها ظروف المكان والزمان كي لا يظن احد بانه يميل مع فريق دون فريق او يفضل فئة على فئة ، وهكذا ظل محافظاً على القوانين بين محكوميه وكانت المساواة جارية بين الجميع على السواء .

(٢) ان هذا الامير الذي ولد ونشأ مسيحياً قد عاش حياته كلها مسيحياً صادق العقيدة بلبنان وخارج لبنان ومات على هذا الدين كما تحققه وصيته الاخيرة التي وقعها بخطه وختمه . ولدينا وثايق مثل هذه واثار خطية ومنها يتضح جلياً انه عاش ومات مسيحياً لا تبديل ولا تقلب في عقيدته الدينية كما ان انحراف بعض اولاده في اسطنبول عن هذا المبدأ طمعاً بالوظائف اثر فيه وعجل موته على ما حققه شاهد عيان.

(٣) المعبد الخاص الذي كان نصبه كاهن الدار بامر الامير وباذن السيد البطريرك في غرفة خاصة من غرف القصر في بيت الدين بحيث كانت تقام فيه الذبيحة الالهية والصلوات الطقسية ويحضرها المؤمنون جهراً . وهكذا كان يجري الامر في مالطه وبروسه وفي عاصمة السلطنة

نفسها . ويقال ذلك عن المعابد التي كانت في قصور ابناء الامير بشير وسائر الامراء الشهابيين بلبنان وغيره وكانت مجهزة بالانية الكنسية الفاخرة ومزينة بالصور الاثرية البديعة التي كانت تهدى الى الامراء من الاحبار والملوك المسيحيين فضلا عن ذخائر عود الصليب وعظام الشهداء والقديسين . تلك ايضاً من دلائل تدين امير لبنان الشهابي واسرته . وهكذا قل عن كنيسة مار مارون القريبة من قصر بيت الدين وهي من هبات الامير وزوجته كما يشير صك الهبة . ومثلها الدار التي بناها قرب الكنيسة لسكنى الكهنة خدام الكنيسة . وهناك لائحة بحسنات القداسات التي كان يوزعها الامير على المطارنة والكهنة على يد الكهنة كما هو محفوظ في خزانة بكركي في حياة الامير وبعد وفاته . وهكذا القول عن كثير من اقارب الامير بشير الذين تفضلوا واوصوا بمثل هذه الهبات الدالة على تدين وايمان حي ، واوقاف الامير حيدر احمد وسائر بني شهاب وهي كثيرة دليل على ذلك . ومن الاوقاف التي وهبها الامير بشير من ماله الخاص كنيسة ودار الرسالة والمدرسة التي تخص الآباء اليسوعيين في معلقة زحله فوهبهم العقارات اللازمة ودفع ثمن البناء الذي صار تشييده تحت رعاية وكيل ارزاقه في تلك الجهات الخوري يوسف شلفون باشارة من الامير (كتاب رسالة اليسوعيين في سوريا للاب جوليان ج ١ : ٤٧) .

(٤) ان المراسلات المتبادلة بين الامير والكرسي الرسولي تدل على تمسك الامير بعروة الدين الوثقى ومحبة الاحبار الاعظمين واجلالهم

للامير اذ يدعونه « الابن الحبيب العظيم الاقتدار » ويكلون الى همته حماية المسيحيين وقضاء مصالح الكرسي الرسولي . واذا كان الامير يتحاشى احياناً مخاطبة هذا الكرسي راساً ويكلف البطريرك الماروني وغيره بالجواب على الرسائل فذلك تفادياً من ان ينسب اليه التدخل مع دول الغرب بالامور السياسية . ومهما يكن من الامر فان علاقاتهمع الحبر الاعظم والكرسي الرسولي علاقات امير مسيحي له المقام العالي والاعتبار العظيم والحب الابوي . تدل عليها الهدايا من صور ومداليات وغيرها مما كانت روميه تتحف بها امير لبنان وانسباءه .

(٥) علاقات الامير مع البطريركية المارونية على ما رواه الثقات المشاهدون والعارفون وقد ذكر بعضها المطران دريان وغيره ، ولوائح حسنات القداسات التي كان يتفضل بها « سعادته » على اكليروس الطائفة شاهدة بفضله ، ومساعداته للمشاريع الطائفية ومنها مشروع تعليم اثنين موارنة علم الفقه وهما المطران حنا حبيب والشيخ بشاره الخوري سنة ١٨٣٧ ساعد الامير بالقسم الاكبر من نفقات تعليمهما على ما ذكرناه في كتابنا « بشعلي وصليما » .

(٦) زيارة البطريرك يوسف حبيش للامير (سبق الكلام عن هذه الزيارة) .

رأي الامير موريس شهاب مدير المتحف اللبناني

ونختم هذا الفصل عن مذهب الامير بشير بفقرة من مقال

رائع للامير موريس شهاب بهذا الصدد وصاحب البيت ادرى بالذي فيه ـ راجع المناره . جونيه ايار سنة ١٩٥٠ ص . ٣٣٢ .

« .. وكان الشعب اللبناني لا يرى في حكامه تمييزاً لطائفة دينية من الطوائف لذلك كان كل شخص من العامة يعتقد ان الامير من طائفته . وهذا ما دعا الناس الى ترديد الحكاية القائلة ان درزياً ومسيحياً ومسلماً اختلفوا على ديانة الامير بشير فزاروه وسألوه عن الحقيقة . فما كان منه الا ان زجهم في السجن تأديباً لهم لتدخلهم بما لا يعنيهم قائلا : « لو كنت من غير طائفتكم فهل يكون في هذا ما يردعكم عن طاعتي ؟ » هذا وقد ردد المؤرخون ذكر الكاهن اسطفان حبيش كاهن الامير بشير الخاص الذي رافق الامير الى منفاه .

وهـذا القدر كاف لاقناع ذوي البصيرة ان الادعاء بان الامير كان متقلباً في دينه هو مجرد وهم لا حقيقة تاريخية يمكن اثباتها .

الفصل السابع

طرائف عن اخلاق الامير وحياته البيتية .

بعد ايرادنا نخبة من الطرائف الرائعة عن ادوار حياة الامير وعن عدله وحزمه في الاحكام لم نر بداً من الحاقها بفصل عن اخلاقه . وليس لعمري افضل منه فصلا نجعله مسكا للختام . ومن الطف الاتفاق

بهذا الصدد ان اثنين من رجالات اوروبا العظام في القرن المنصرم تركا لنا وصفاً شائقاً عن اخلاق الامير هما الكولونيل شرشل الانكليزي الذي تقدم الكلام عنه ولامارتين الافرنسي الشاعر والخطيب والسياسي .

كلمة شرشل

مما دونه الكولونيل شرشل عن آداب الامير العبارة التالية : « اما من حيث آدابه الشخصية فقد كان على اشد ما يكون من التصون والصرامة على نفسه يأنف من التعدي ولو بصغيرة على سنة الآداب المرعية غير حائد خطوة عن جادة الفضيلة القويمة . »

ويؤيد كلام شرشل ما نقله السلف الى الخلف من الاخبار الرائعة عن آداب الامير السامية . والمعروف عنه من هذه الناحية انه كان يكره مغازلة النساء وقد كتب عنه السعيد الذكر المطران دريان في « النبذة التاريخية » ما يأتي : « والمشهور عنه انه كان شديد التعفف الى حد المبالغة حتى انه لم يكن يملأ نظره من المرأة قط وقد ذهب تعففه من هذا القبيل مذهب المثل » . وهو لم يكن ليبيح لاحد ان يتجاوز بحضرته حدود الآداب بالاحاديث والاغاني بل كان يبادر الى التوبيخ او ايقاع العقاب بجانب الذين يستحقونهما من المخالفين ونقتصر على ايراد النكتة التالية :

نادرة عن عفة الامير

توجه الامير يوماً الى عين المعاصر الشهيرة ذات الماء النقي البارد وهي لا تبعد كثيراً عن بيت الدين يروح النفس على قناتها يحيط به الشعراء والمغنون وظلوا هناك الى ان قاربت الشمس المغيب . فمرت بهم اذ ذاك امرأة من دير القمر اسمها « وردة » واذ رأت ذلك الجمع احمر وجهها حياء وواصلت سيرها مسرعة، فاتجهت اليها الانظار عفواً وتبادل بعضهم النظرات خلسة واذا بالمعلم بطرس كرامه يندفع الى انشاد هذين البيتين فجأة متلفظاً باسم المرأة :

وردية الخد بالوردي قد خطرت
تميس تيهاً وتثني القد اعجابا
لم يكف قامتها الهيفاء ما فعلت
حتى اكتست من دم الطلاب اثوابا

فصفق الحاضرون استحساناً كأن الشاعر صور ما كان يجول في خاطرهم . اما الامير فظل ساكتاً لم تبد منه حركة البتة .

فتناول احد المغنين عوده وضرب الاوتار قاصداً غناء البيتين فانشد :

وردية الخد بالوردي قد خطرت ...

واذا بصوت جهوري جلي قوي يقطع الغناء فجأة ... فدهش الحاضرون وزاد دهشهم اذ رأوا وسمعوا الامير بعينه يرتجل شعراً بتأن

وشدة في اللفظ :

« في مجلس لو رآه الليث قال به   يا نفس في مثل هذا يلزم الادب »

فحدث ولا حرج عما كان لهذه المفاجأة من الوقع الشديد على نفوس الحاضرين الذين بهتوا ساكتين كأن على رؤوسهم الطير وساد بينهم السكون واي سكون ... واما ذاك المغني فرشقه الامير بواحدة من لحظاته الحادة التي ملأت قلبه ذعراً فارتخت اصابعه ووقع العود من يده في المياه . وقبل طلوع الشمس كان خبر هذه الحادثة انتشر في دير القمر وبيت الدين وسجل الناس في ذاكرتهم نادرة جديدة عن تعفف الامير وعن اخلاقه السامية .

امرأة وحدها في وادي القرن

ومن هذا القبيل نادرة مشهورة نرويها بايجاز . ان وادي القرن ممر محفوف بالاخطار على الطريق المؤدي من بيروت الى دمشق لما يكثر فيه من اللصوص وقطاع الطرق فصارت تضرب باهواله الامثال .

ارسل الامير يوماً ساعيه علي حبق الى والي دمشق يحمل اليه رسالة . ولدى عودة الرسول ومعه جواب الوالي رأى ، وهو مار في وادي القرن ليلا ، امرأة تسوق حماراً فدهش من هذا المنظر .. امرأة تسير وحدها في تلك الساعة وفي ذلك المكان ؟ كيف تجسر على ذلك ؟ الا تخشى يداً عادية ؟ ولا سيما انه شاهد على ضوء القمر اساور ذهبية

تلمع في معصمها و « قلادة » تتلألأ على عنقها وفي ضفائر شعرها علقت قطع من النقود الذهبية حسب عادة ذلك العصر ، وكان يسمع رنات اهتزازها كلما حركت المرأة يمينها لتهوي على الحمار بالقضيب الذي كانت قابضة عليه .. وبعد ان تردد علي حبق برهة غلبه الفضول واقترب منها وسألها : اما تخافين ان تسيري وحدك الآن في هذا المكان ولا سيما ان عليك مثل هذه الجوهرات ؟ فنظرت اليه بإباء ونبرة في صوتها : « لست وحدي ، فان ابا سعدى سائر معي ، سر في طريقك » (وابو سعدى كنية للامير بشير كامر) فابتعد عنها علي حبق وتابع سيره ساكتاً معجباً بسطوة سيده الامير الذي امتدت هيبته حتى الى تلك النواحي والقت الذعر في قلوب الاشقياء وامنت الطرقات وعزم ان يروي عليه هذا الحادث على سبيل المدح والتزلف على يقين انه ينال رضاه العالي .

وصل علي حبق الى بيت الدين وسلم الجواب الى كاتب الامير الذي نقده خمسين غرشاً لاسراعه في اتمام مهمته وبعد مدة جلس الامير واحضر الساعي وسأله ان يحدثه عما رأى . فسر علي اذ قد اتت الفرصة المبتغاة واخبره بكل ما جرى له مع المرأة وهو ينتظر المكافأة . واذا بالامير يعبس بوجهه وينتهره قائلا : كيف بلغ بك الفضول ان تخاطب امرأة غريبة وحدها في مثل ذاك الموقف ؟ ثم امر ان يضرب خمسين عصاً عبرة له ولامثاله ممن يحملهم الفضول الى تجاوز الحدود .

الامير بشير واهل بيته

ان الشاعر لامرتين الذي مر ذكره بعدان وصف زيارته التاريخية للامير سنة ١٨٣٢ في قصر بيت الدين كتب في وصف الامير عبارة رشيقة جاءت موجزاً لما سبق ذكره بالاسهاب وهي : « امير شهم نبيل. اسد في القتال . اما ما بين اهل بيته فهو ذو انس وحنان » . والكولونل شرشل بدوره خصص لوصف اخلاق الامير الاهلية فصولا طوالا نقتصر منها على ما يلي تعريبه :

كان في قصر الامير اكثر من الف فارس لا يزالون في حركة دائمة ذهاباً واياباً قائمين بتنفيذ الاوامر والاحكام وبالمحافظة على الامن والراحة في انحاء لبنان . وقد كان الامير مضيافاً سخياً لا حد لكرمه لكنه ، مع حبه الجم لاستقبال الضيوف وتكريمهم وانزال كل زائر وطارق على الرحب والسعة وبجود لا يجارى ، كان بعكس ذلك على نفسه شديد القناعة والامساك لا يتناول الطعام في يومه الا مرة واحدة وذلك عند ساعة الظهر وكان عند غياب الشمس يأكل كسرة من الخبز مع شيء من الفاكهة المجففة .

ومن هذا يجدر ذكر سخائه على الفقراء الذين كان يقدم الطعام اليومي لنحو مئتين منهم ولم يجاره في ذلك من معاصريه الا الشيخ بشير جنبلاط .

واما اولاده فلم ينظر الا الى الكفاءة في امر تسليمهم الوظائف

فانه اذ خبر في ابنه امين الذكاء والمرونة في المعاملات اشركه معه في الحكم وعهد اليه القيام بالاعمال السياسية كما انه عهد الى ابنه خليل قيادة الجيش لشجاعته ومؤهلاته العسكرية واما ابنه قاسم فلم يسامه وظيفة لان مؤهلاته كانت يسيرة .

اوصافه الخارجية

اختصرها الاستاذ البستاني في تاريخ لبنان الموجز ص ٨٨ نقلا عن المؤرخين في ما يلي :

« كان الامير قوي البنية طويل الشاربين واللحية يلبس قفطاناً (غنباز) من حرير وجبة وعمامة ثم ترك العمامة ولبس الطربوش المغربي ويقال انه كان يدخن في شبق كبير يسع كمية من التبغ ويجلس جاثياً وغدارته الى جانبه واذا غضب وفاه بصوته الجهوري القى الرعب في قلوب سامعيه وكان عفيفاً في حياته الشخصية مثابراً على الفروض الدينية جليلا نبيلا ذا سطوة ومهابة » .

زيارة لامرتين للامير بشير

ان اسم لامرتين له شهرة عز ان تضاهى لدى اهل الادب ويذكر له ابناء لبنان والموارنة خاصة عطفه على بلادهم وجهوده في

سبيل دفع الظلم عنهم على اثر حوادث مؤلمة دونها التاريخ ولا افادة الآن من ذكرها . وقد زار لامرتين الامير بشير في بيت الدين ودون وصف زيارته في كتاب رحلته ورد شيئاً منه في كتاب « في سبيل لبنان » للاستاذ الالمعي يوسف السودا وزير لبنان في البرازيل ، وللامير نسيب شهاب مقال في هذه الزيارة يلذ لنا اثباته هنا كما لذت له كتابته .

لامرتين في قصر بيت الدين

لم يكن الفونس دي لامرتين سياسياً محنكاً فحسب بل كان ايضاً من اكبر شعراء اوروبا الذين يشار اليهم بالبنان قرأ كثيراً عن الشرق وروائعه فاعتزم شد الرحيل اليه ليغذي قريحته بمناظره الخلابة ودماغه بما يوحيه اليه من خيال .

ابحر من مرسيليا في ١٣ حزيرن عام ١٨٣٢ على ظهر المركب « السيست » وقد اصطحب معه امرأته وابنته جوليا وثلاثة من اصدقائه هم : رسيفال وكابماس والطبيب لاروبير وستة من خواص خدمه فوصل الى بيروت في ٦ ايلول عام ١٨٣٢ وبعد ان استراح عدة ايام فيها توجه الى قصر بيت الدين لعل عظمته وعظمة اميره توحيان اليه افكاراً لا يجد امثالها في الغرب .

وما كادوا يشرفون على ميدان بيت الدين حتى رأوه يعج برجال

الحاشية والكهنة والخدم والجند وكان يرتفع في زاوية منه مهبل ستمائة جواد من اجمل الخيول العربية المطهمة . فوقف لامرتين على الرغم منه اما هـذا المنظر الرائع واطلق برهة من الوقت العنان لمخيلته وغرق في بحر من التأملات الواسعة ثم تلفظت شفتاه بهذه العبارة التأريخية :

«الشرق... يا لعظمة الشرق!..»

وكأن تلك العبارة ايقظته من سبات عميق فترجل وتقدم من حراس باب القصر الكبير وقد تقلدوا

الفونس دي لامرتين

رماحهم الطويلة وطلب الى احدهم ان يوصل الى مولاه التحارير التي كان يحملها له وقيل انها كانت سياسية . ولم يطل به الانتظار حتى رأى المسيو بوتران الافرنسي الدم اللبناني المولد طبيب ابي سعدى الخاص يستقبله باسم سيده فقاده واصدقاءه الى جناح خاص من القصر حيث رحب بهم . واذ قد اذن الظهر جاءهم الخدم بالطعام فوضعوه على صدر من النحاس الاصفر بعد ان اركزوه على سكملة من الخشب المطعم بالصدف وكان مؤلفاً من اللحم على شكل « البفتاك » وارز بدفين ولبن ومحشي كوسى ولبنه مع الزيت وزيتون وفواكه عدة وقد وضع الخدم بجانبهم ابريقاً من الفخار للشرب وخبزاً عربيا .

واقترح الشاعر بطرس كرامه على الامير بشير الكبير ان يرسل لضيوفه الافرنسيين اواني طعام افرنجية واكواباً للماء فرفض الامير بشير العمل باقتراحه مؤيداً مذهبه بما يلي :

ان لامرتين واصدقاءه ضيوف في بلاد شرقية فعليهم ان يحترموا عاداتنا كما يحترمون عادات بلادهم اذ لا استقلال لقوم يفقدون عاداتهم ليقلدوا عادات غيرهم .

وما كادوا ينتهون من طعامهم حتى ارسل اليهم الامير بشير الكبير رسولا ينبئهم انه في انتظارهم في قاعة العامود . ولم يكد لامرتين يطأ رتاجها حتى عرته الدهشة من نقوشها الرائعة فاجال طرفه فيها فرأى المياه تتدفق مرتفعة ثم تقع في بركة قائمة في وسطها يربض على مقربة منها نمر كبير هائل وقد وضع رأسه بين يديه المبسوطتين . وكان الامير بشير جالساً على زاوية ديوان طويل من المخمل الاحمر يقوم بين يديه رهط من الكتبة والموالي والعبيد ، وكان يرتدي ثوباً ناصع البياض ، ويتمنطق بزنار من الكشمير برزت في اعلاه قبضة خنجر مرصعة بالالماس شطر رأسها اسفل لحيته الكبيرة الطويلة شطرين .

وقد شعر النمر بحركة غريبة في القاعة فرفع رأسه وما كادت عيناه تقعان على لامرتين ورفاقه حتى زأر وكشر عن انيابه وتحفز للوثوب فزعق فيه الامير بشير صوتاً اقعده فرجع الى تمدده الاول مدمدماً .

وتقدم لامرتين ورفاقه قليلا واحنوا رؤوسهم امام سيد لبنان ورفعوا يدهم اليمنى على جباههم ثم على قلوبهم سيراً على طريقة التحية الشرقية، فاجابهم الامير بمثلها وارفقها بابتسامة لطيفة واومأ اليهم بالجلوس على الديوان على مقربة منه، واستعد ترجمانه الذي كان جالساً على الارض عند قدميه ليمثل دور الوسيط في الكلام.

فبدأ لامرتين معبراً عن السرور الذي شمله ورفاقه من زيارة لبنان والتمتع بالمثول بين يدي اميره الذائع الصيت، وابدى اعجابه من حسن ادارته وتوطيد اركان العدل والامن في ارجائه وازدهار مواسمه واذابة اميره النعرات الطائفية من مارونية ودرزية واسلامية في بوتقة شعب واحد هو الشعب اللبناني المتعلق كل التعلق بسيده وحاكمه.

فشكره الامير بشير الكبير على ثنائه وامطره وابلا من الاسئلة عن حالة فرنسا السياسية والفكرية وآراء دول اوروبا في النضال القائم بين الدولتين المصرية والعثمانية مما ادهش لامرتين اذ لم يكن يتوقع ان يرى في الشرق رجالا محنكين واقفين على دقائق الامور السياسية في اوروبا.

وطيف بالقهوة و« الشبق » حتى اذا ما فرغوا منها وقد استقرت المقابلة اكثر من ساعة من الزمن نهض الامير بشير وسار بضيوفه الى الميدان الداخلي، ومن ثم الى الحمامات التي لا نظير لاتقانها في فرنسا اذ لا يعتني هؤلاء بها اعتناء الشرقيين، ثم ودعهم ودخل الحمام ليستحم قبل ان يتناول الغذاء.

طاف لامرتين واصدقاؤه في قصر بين الدين فاعجبوا بزخرفته ونقوشه وبلغ اعجابهم اشده حين زاروا الاصطبلات ووقعت انظارهم على الخيول العربية المطهمة لا سيما وقد كان لامرتين من المولعين بها .

وبعد ان تناولوا طعام العشاء ارسل اليهم الامير بعض ضباطه ليردوا لهم الزيارة لانه لم يكن يزور بنفسه من كانوا دونه مقاماً، وارسل لهم في السهرة رهطاً من المنشدين والموسيقيين اللبنانيين ، فاحيوا لهم سهرة زاهرة ارتجل شعراء الامير بشير في اثنائها ابياتاً شعرية القوها في مديح لامرتين ومديح بلاده .

وفي صباح اليوم الثاني زار لامرتين قصور اولاد الامير بشير الكبير في بيت الدين وكانت على مقربة من قصر ابيهم ،ثم امتطى جواده بعد ظهر ذاك اليوم وقفل راجعاً الى بيروت ، وقد دون في مفكرته عن الامير بشير الكبير العبارة التالية : الامير بشير شهاب الكبير رجل لا تستطيع النظر طويلا اليه اذ تصعقك نظراته مهما كنت جسوراً ، شيخ له همة الشباب وحزم صارم اذا ما اضيف الى هيبته ووقاره ادركت اذ ذاك سر توطيد الامن لدرجة متناهية في تلك الجبال الصعبة ، خبير في السياسة متبصر في العواقب ذو رأي سديد ، كريم النفس شريف المحتد ، اسد في المعارك ، رؤوف وديع ضمن جدران عائلته .

نسيب شهاب

نخبة من رسائل الامير بشير

ننشر هذه النخبة نقلا عن الاصل المحفوظ في مكتبة الصديق الخوري اسطفان البشعلاني تكملة لما ذكرناه عن اخلاق الامير ولما فيها من الفوائد عن طرق التراسل في تلك الايام .

الى الامير حيدر بللمع الذي صار في ما بعد قائمقام النصارى

جناب حضرة الاخ العزيز الامير حيدر المكرم حفظه الله تعالى

بعد مزيد الاشواق الى مشاهدتكم في كل خير وعافية ، نخبر خوتكم انه قد بلغ مسامعنا ما حصل للراهب شاول في دار الراس وقد ارسلنا استفحصنا فاتضح كما يقرر عزيزنا ناقله . ولا يخفى على خوتكم ان هذا شيء لا يصير عنه سكوت ، قصدنا افادة خوتكم بذلك لكي تشرحوا لنا ما يحسن برايكم بهذه الحادثة ولا تقطعوا اخباركم عنا ..

محب مخلص

(الختم) بشير

« ان الراهب شاول هو القس شاول من الكنيسي في المتن من بيت الاسمر، وقد صار بعدئذ رئيساً عاماً على الرهبنة الانطونية ، ويظهر ان قد جرى له حادث في دار الامراء اللمعيين براس المتن فكان ذلك موقف الامير بشير »

... بلغنا انه حاصل لخوتكم طرف ترشيل (رشح) فهل قدر

انشغل فكرنا بذلك انشاالله يكون عرض وزال وحصلتم على الشفاء التام المراد تعرفونا عن رياضتكم لانكم تعلموا ان ذلك مما يشرح خاطرنا ولا تقطعوا اخباركم عنا ..

(الختم) محب مخلص

بشير

... نخبركم بخصوص عزازنا بيت الناكوزي (بصليما) بمفهوم خوتكم في بداية الحركة تركوا خاطر اخونا اخوكم الامير عساف وحضروا لخدامتنا استقاموا لنهاية الحركة وحيث ثباتهم وعدم مساهمتهم لراي الذين كانوا متبعدين من خاطرنا يقتضي يكون لكم حسن النظر والملاحظة الى احوالهم ومما به سترتهم حيث خدامتهم المرضية لدينا لا نروم غير تسجيم احوالهم واللفتة عليهم ولا تكونوا خوتكم متغاضين عنهم كما هو ظننا بكم لان سعيهم كان مما يوافق خاطركم وعايد لرضانا.

(الختم) محب مخلص

بشير

« كان ذلك يوم الحركة التي قام بها الشيخ بشير جنبلاط ضد الامير بشير وكان الامير عساف مع الشيخ واخوه الامير حيدر مع الامير وبيت الناكوزي من حزب الامير عساف فتركوه وتبعوا الامير حيدر وساروا مع الامير بشير سنة ١٨٢٥ ».

« ... والثاني نخبر خوتكم انه بعلومكم توجهنا الذي كان حاصل

على غضبان حاطوم من « كفرسلوان » واستخدام .. له فضلا عن السماح في الغلط الذي كان حاصل منه سابقاً امرنا له برجوع ارزاق جديثه ومنافع ، فعوضاً عن ان يقدم الخدمة المرضية فكان مسعاه بالفساد والخلل الذي ظهر لدى الجميع فاقتضى توجه اعزازنا المشايخ بيت ابو حسن علي الى كفرسلوان وبمنه تعالى توفق وقوعه باليد فاحضروه الى نبع الصفا وهناك قضي عليه باعدامه جزاء لما استحق وبحوله تعالى ان هذا مصير كل خاين ومفسد ولتأكيدنا ان ذلك مما يسركم اقتضى تعريف خوتكم .

(الختم) محب مخلص

بشير

منظومات شعراء الامير عندما اسدل لحيته

جاء في الغرر الحسان بتاريخ سنة ١٨١٢ النكتة التالية يناسب ذكرها في هذا الفصل

وفي هذه السنة اطلق الامير بشير لحيته وكان قد بلغ من العمر ستة واربعين سنة وقد مدحه الشعراء الموجودين لخدمته في هذه الابيات وهي تنسب الى المعلم بطرس كرامه الحمصي ابن اخت مخايل البحري :

ان البشير الذي فاز الزمان به

قد فاز بالمجد والافضال واللطف

بدا عزار البها في سعد طلعته

يحكي اساطير بسم الله في الصحف

الله عظمه قدراً وجمله

ارخ وزينه في حلية الشرف

وهذه الابيات تنسب الى المعلم نقولا الترك :

لما تبدى ذو المعالي مسبلا   ابهى عذار لاح في وجناته

فنشدته لك الهنا يامن به   ارخت عش عمراً عديد نباته

وهذا ينسب الى المعلم الياس اده :

فريد العصر مولانا المفدى   بشير الامن زينه الجمال

وجمعت المحامد فيه حتى   لنور شهابه سجد الهلال

ومذ أبدى محياه عذاراً   فنادى ارخوا ظهر الكمال

ثم ان الامير بشير بعد ان اطلق لحيته غير حلته ، وازال عن رأسه الطربوش الطويل ، وغير رونق عمامته فاقتدى به خدمه. والاكثر اطلقوا لحاهم . والبعض غيروا لفاتهم . فانشد بذلك المعلم نقولا الترك :

بشير العصر سن الى البرايا   لعظم جلاله سنن الكمال

فاهدوا الخلق بالتاريخ بشراً   ببطلان الطرابيش الطوال

الامير بضيافة الفلاحة

قيل ان الامير بشير كان مرة عائداً من الصيد مع بعض رجاله وهم جياع فمروا بفلاحة في ضاحية مجدل معوش وطلبوا منها طعـاماً معجلا . ويظهر ان المرأة عرفت من كان محدثوها فرحبت بهم قائلة : اجلسوا وسأقدم لكم ما تأكلون بعد هنيهة . وللحال اضرمت النـار ووضعت عليها سمناً في طنجرة وجاءت بالصحاف والبيض فكانت تضع مغرفة من السمن الحار في الصحفة وتفقس فوقه البيض وترشه بالملح وتقدمه فيصل امام الآكلين ناضجاً . وكانت بناتها من جهة ثانية يأتين بالخبز المرقوق وما في البيت من حواضر كاللبن والجبن والعسل والدبس والتين المطبوخ ، فأكل الامير مريئاً وسر من المرأة واجازها بقطعة ارض تطعم دجاجها من موردها ، وذهب وهو يقول : حقاً ان الدجاجة عنزة الفلاح والبيضة طبخة جاهزة .

الفصل الثامن

هل كان الامير ذا (قساوة بربرية) ؟

رد التهمة من شهادة ضحية القساوة المزعومة

اشتهر الامير بعدله حتى ضربت بعدالته الامثال ولم يقم من

لامه على ما كان يظهره من الصرامة والشدة في عقاب المجرمين ومن القساوة التي كانت تضطره اليها ظروف هاتيك الايام العصيبة الشاذة غير ان بعض الكتاب نسبوا الى الامير ما يسمونه (قساوة بربرية وظلماً) في حادثتين هما تنكيله ببعض الامراء الشهابيين الذين امر بسمل عيونهم سنة ۱۸۰۷ وسنة ۱۲۸٥ وقتله لجرجس وعبدالاحد باز مدبري اولاد الامير يوسف بيوم واحد سنة ۱۸۰۷.

الا ان الذي يقتصر على رواية هاتين العقوبتين ويتغافل عن الوقوف على الاسباب التي دفعت اليهما ثم يصدر فوراً حكمه فيها يكون ولا شك متسرعا بحكمه غير مصيب ولا منصف. لان التاريخ الصحيح يذكر باسهاب الاسباب الخطيرة التي تبرر ساحة الامير (من القساوة البربرية) في نظر المؤرخ المنصف لانه اي الامير اجرى هذه المعاقبة في حينها عقاباً عادلا لمستحقيه ولاجل استتباب الامن وراحة الشعب ولاجل صيانة لبنان واستقلاله من الاضمحلال لان هؤلاء الاشخاص كانوا خطراً دائماً عليه دأبهم اثارة الفتن والثورات على الامير، طمعاً منهم وبدسائس ولاة الاتراك، مما كان يجلب الحرب الاهلية في لبنان مع ما وراءها من ضروب الخراب والويلات وكانت هذه الاضطرابات يدبر معظمها الاخوان ابنا باز لما كان لهما من الدهاء والتيه والنفوذ والاقدام، بدرجة عز ان تجد لها مثيلا.

قال الشيخ سليم الدحداح: «ان الامير لم يأت هذين العملين الا مرغماً مضطراً خوفاً من مزاحمتهم له ونجاة من مكائدهم اذ كانوا

يطلبون قتله والفتك به وبذويه كما تبين له ذلك اذ كان سجيناً في عكا .
وهب انه افرط في تنكيلهم فله اسوة بشرائع عصره والعادات الجارية في زمانه وفي الدول المتمدنة عينها كانكلترا والنمسة ، ولا سيما انه كان يرى امراء لبنان يأتون من الاعمال الهمجية ما تقشعر له الابدان ، كالامير يوسف الذي قتل بيده احد اخوته وسمل عيني اخيه سيد احمد وفتك باحد اخواله وامات الآخر بالسجن » - (النبذة التاريخية عن الامير بشير ص ١٨ ، وراجع النبذة التاريخية للمطران دريان ص٤١٤)
ثم يمكننا ان نسأل الذين يشددون اللوم على الامير ويسكتون عن سواه : ما هذان العقابان اللذان اجراهما الامير اذا قوبلا بما فعله محمد علي باشا في مصر باغتياله غدراً مئات المماليك واهلاكهم بيوم واحد في حكاية شهيرة لا يجهلها احد ؟

وهنا لا بد من الاشارة الى ان العادة بذلك العصر كانت ان الامراء والباشوات لا يعاقبون بالاعدام اذا اجرموا بل بالتنكيل مثل سمل العيون وقطع اللسان عبرة لسواهم .

وعند جهينة الخبر اليقين

وجهينه هنا هو الكولونيل شرشل الذي يروي باسهاب خبر سمل عيون الامراء ومنه يتضح ان هؤلاء الامراء نفوسهم يبررون ساحة الامير . ولا علم لنا ان هذه الرواية نشرت بعد باللغة العربية .
فبعد ان روى شرشل المؤامرة الاولى التي قام بها الامراء وخبر القبض

عليهم يستأنف روايته بما يلي (مجلد ٣ صفحة ٣٥٨) «دخل الامراء تبدو عليهم ملامح الذل والانكسار وقد اعترتهم الرعبة لما كانوا يتوقعونه من الهول لدى اشتهار مخالفتهم الاثيمة . الا انهم لم يسمعوا ولا كلمة تقريع بل بدلا منها اذ بكلمات ثلاث تطرق آذانهم بلهجة شديدة وصوت منخفض : « وقعوا امضاءتكم بذيلها » ! وكان الامير قد سحب من طيات ردائه وثيقة اخذ كاتب اسراره في قراءتها . وقد اثار مضمون الوثيقة اضطراباً هائلا في نفوس الامراء ولا غرو فقد كان مدوناً فيها بعبارة وجيزة غاية في الايضاح تعهد يصرح فيه الامراء عباس وفارس وسليمان بانه لن يصدر منهم في المستقبل ادنى عمل من شأنه ان يسبب كدراً او ازعاجاً البتة طيلة حياتهم ، وبانهم لن يعودوا قط لا بنفوسهم ولا بواسطة غيرهم الى اقلاق حكومة الامير بشير في جبل لبنان او في الاماكن التي تمتد اليها ولايته وذلك تحت طائلة سمل عيونهم بالحديد المحمى وقطع السنتهم .

« فلم يبد من الامراء ادنى تردد او اعتراض بل بعكس ذلك اخذوا يسابق احدهم الآخر الى تكرار عبارات الخضوع والاخلاص نحو الامير معترفين علنا بما صدر منهم من اعمال الغرور ونكران الجميل ، ومرددين بصوت عال انهم اذا لا سمح الله حنثوا بوعدهم فهم يرضون ليس ان تسمل عيونهم وتقطع السنتهم فقط بل ان تكون كل اجسادهم وحياتهم وكل افراد اسرة شهاب تحت تصرف الامير بشير . ثم وقع الامراء اختامهم على الوثيقة وامر الامير ان تودع في

موضع حريز بعد ان صار تسجيلها وبعد ان اخذت عنها نسخة طبق الاصل ادرجت في السجل الرسمي . ولما انتهت هذه المعاملة الغريبة والفريدة في بابها شرع الامير يظهر نحو اقاربه هؤلاء بشاشة ولطفاً جماً لعله ينسيهم ما سبق وسبب لهم من الارتباك والانزعاج والح عليهم بان يصرفوا مدة وجيزة في بيت الدين ، فلاقوا في ضيافته المعتادة ضروب الحفاوة والتكريم ، وقد اقبل عليهم الناس يهنئونهم برجوع رضى الامير عليهم . ثم بعد ان اغدق عليهم الامير هداياه من مال وملابس عادوا الى منازلهم بالمسرة والابتهاج - على الاقل فيما كانت تشير اليه مظاهرهم » - (شرشل ج ٣ . ص ٣٥٨) .

مضت على هذا الحادث الخطير مدة غير طويلة بدأت بعدها الاخبار ترد الى الامير من حين الى آخر تفيده ان الامراء موقعي الوثيقة رجعوا الى ما كانوا عليه ، من عمل المؤامرات السرية ودس الدسائس بالاشتراك مع اخصام الامير غاية اشعال نار الفتنة ثم الثورة وقلب حكومة الامير واستلامهم الحكم مكانه ، على ما كانوا الفوه من ذي قبل على عهد الجزار وعبدالله باشا والي عكا . وقد وهموا ان الامير غير دار بذلك . غير انه لم يطل الزمن حتى باغتتهم خيالة الامير وقبضت عليهم واذا هم يرون نفوسهم بغتة موقوفين في سراي بيت الدين يتوقعون مصيرهم الهائل برهبة على احر من الجمر » .

نعود الى تعريب ما كتبه شرشل واصفاً هذا المشهد الاخير قال (ج ٢ ص ٣٨٤) « في هذه المرة لم يصر للامراء استقبال قط ولم

ينالوا ادنى التفات من الامير الذي لم يشاء التنازل لمواجهتهم ، بل امر ان يؤخذوا الى غرفة خارجية محاذية الميدان حيث دخل عليهم مدير الشرطة وبسط امام اعينهم كتابة عرفوها للحال واقروا بانها كتابتهم ، لان اختامهم كانت عليها ظاهرة فيها اسماء الامراء عباس وفارس وسليمان دون ادنى التباس او غلط ، فضلا عن ان الامراء لم يحاول واحد منهم قط الاعتذار او التخفيف من شناعة عمله ولاسيما الامير عباس الذي كان يجاهر بصوت عال مكرراً هذه العبارة : (بعدل وحق حل بنا هذا المصاب) وحالا جاء من سمل عيون الامراء الثلاثة وكانت من قبل سملت عيون ولدي الامير يوسف ويختم شرشل كلامه بهذه العبارة : « وكان الامير منفذاً لمنطوق التعهد » (ج ٣ ص ٣٨٥) وجاء عمله فيهم عبرة لمن اعتبر فارتاح وارتاحت البلاد من الاضطرابات والقلائل .

حديث الست مروا

يجدر بنا ان نضيف الى ما سبق فقرة من كتاب « لبنان ويوسف بك كرم » للمؤرخ المدقق صديقنا الخوري اسطفان فريحه البشعلاني تلامس هذا الموضوع قال صفحة ١٢٣ : «حدثتني الست مروا زوجة الامير فارس سيد احمد شهاب ، وهو ممن سمل الامير بشير اعينهم لقيامهم عليه ، ان زوجها كان اذا عثر تذمرت هي على من

تسبب بعماه . فالتطم ذات يوم بعامود منزله فصاحت ودعت على الامير بشير فقال لها : ياليتنا متنا في ايامه ، فقد كان فخر اسرتنا الشهابية بل فخر الديار الشامية كلها ، وقد كان معذوراً فيما عمل بنا لاننا تآمرنا عليه واخلفنا عهدنا معه ، ولو فزنا لفعلنا به اكثر مما فعل بنا ، وهذا كلام يدل على مروءة نادرة » . آه

لعمري ان هذا الامر فصل الخطاب . وهو فوق ذلك دليل لا مردّ عليه وبرهان قاطع على ان في ايام حكم الامير بشير « لم تختف جريمة قط ولم يفلت مجرم حتى ولو كان اميراً خطيراً او اقرب الناس واعزهم لدى الامير » . وهذا لعمري مديح لا يوازيه مديح ولا نعلم اميراً او حاكماً صح انطباقه عليه كانطباقه على الامير بشير .

نظرة اجمالية

« لماذا اطلق عليه لقب « الكبير ؟ »

تقدم القول في بدء هذا الكتاب ان هذا اللقب لصق باسمه . ولا غرو فانه ينطبق عليه انطباقاً كلياً كاملا اي بصفته الشخصية والعمومية لانه كان كبيراً كفرد وكبيراً كحاكم فكان خاصة كبيراً بعدله وعقله واخلاقه وسطوته وشجاعته وعقيدته .

هيبة الامير ومجلسه

بعدان وقف القارىء في مقدمة الكتاب على ما كان من امر الصدر الاعظم وجوابه الصريح لا يعجب اذا قيل له ان الامير بشير كان كبيراً بهيبته ووقار مظهره، حتى ان كثيرين كانوا لا يقوون على التحديق به والتأمل في وجهه والاحتفاظ برباطة جأشهم والتكلم بحضرته، مع ما عرف به اللبنانيون من قوة البدن واشتداد القلب. وحسبك نظرة الى رسمه المعروف فاذا حدقت فيه تأخذك الروعة من هاتيك العيون والحواجب مع ان ليس هنالك الا ظل الحقيقة. وقد أشاد بذكر هيبة الامير وعظمة مجلسه السياح الاجانب الذين زاروه مثل الشاعر الفرنسي لامرتين والسياسي العظيم الكولونيل شرشل عم والد المستر شرشل رئيس الحكومة الانكليزية الشهير.

ومما زاد في هيبة ذلك المجلس الحاشية المنتخبة التي اتخذها الامير لنفسه مؤلفة من اعظم رجال عصره علماً وادباً وحكمة واقداماً وفروسية، مثل الشيخ ناصيف اليازجي والياس اده وعبده آغا نوهرا البشعلاني، وغيره من عائلته انسباء مربية الامير مرحبا البشعلاني، وبطرس كرامه والشيخان يوسف وسلوم الدحداح والشيخ اسعد ابو صعب افرس فرسان الامير وغالب الدالاتي الفارس الشهير وطبيب الامير فرنسيس الحاصباني جد آل فرنسيس في القليعة. فكان يحتاط بهم في ذلك القصر المنيف الذي شاده على قمة بيت الدين ينافس قصور

ملوك ذلك العصر ولا يزال طرفة للناظر فجعله مركزاً لحكومته ومقراً لعائلته ومعسكراً لجنوده وميداناً للسباق ومحكمة رهيبة وسجناً مظلماً .

ذكاؤه

كان كبيراً بعقله حاد الذكاء سديد الرأي مرن السياسة ذا فراسة فريدة لمعرفة الاشخاص واطوارهم بل مخبآت صدورهم ، حتى انه كان كثيراً ما يكتشف الجاني لمجرد النظر اليه وتأمله حركاته ، ويروون من هذا القبيل اخباراً مذهلة اشبه بالخرافات اذ لم يسبقه الى مثلها احد من الحكام بل من الناس على الاطلاق تساعده على ذلك ذاكرة وقادة امينة فلا تفوته فائتة حتى كانوا يقولون انه موجود في كل مكان .

ومن مآثر حكمته وتعقله انه رغم استلامه الحكم في اصعب ازمنة لبنان ، اذ كانت تهب فيه عواصف السياسة الهوجاء بين جشع عمال الدولة العثمانية وظلمهم ودسائسهم وبين تنافر الاحزاب والطوائف ، توصل بمرونته واستقامته الى جمع كلمة ابناء لبنان من نصارى ودروز وشيعيين وسنيين ، ثم الف منهم جيشاً منظماً كان قوة عظيمة يحسب له في الشرق الادنى اكبر حساب لان كفة من ينصره كانت دائماً ترجح .

شجاعته

اتينا على ذكر عدل الاميرواخلاصه . واما عن جرأته وشجاعته وقوته فقد قيل عنه انه كان « جيشاً في جيشه » وكم من موقعة خسرها بجيشه فربحها ببطشه . من ذلك ما فعله في موقعتي لحفد والحيمال فانه في هذه ، لما رأى رجال العسكر المرسل نجدة له من قبل الجزار قد ولوا هاربين ، جرد هو بنفسه سيفه وهجم على عسكر العدو فاعاد مثله الحمية الى ذوي القلوب الضعيفة فعادوا الى القتال واشتد ساعدهم وشتتوا الاعداد بفضل اقدام اميرهم الشجاع .

ومما لا بد من الاشارة اليه انه كان كبيراً بعقيدته متمسكاً بدينه المسيحي طيلة حياته بالرغم من الظروف التي كانت تلجئه الى جحده . وكان وهو الحاكم المطلق والرئيس الاعلى يخضع لرؤسائه الروحيين وينفذ احكامهم ورغائبهم ، ومع تمسكه بدينه فانه قد تمشى في حكمه على خطة من تقدمه من حكام لبنان لا يعرف للتعصب او التحيز الديني معنى ، فكان وهو المجاهر بنصرانيته يتخذ مدبريه واعوانه من كل الطوائف اللبنانية لا ينظر ولا يعتبر في اختيارهم ورفع رتبهم الا الى الكفاءة والامانة .

وبعد كل ما تقدم يجدر بنا ان نضيف انه اعطي ان يكون ايضاً كبيراً في سنه فقد مد له في العمر حتى بلغ الاربع والثمانين وولي الاحكام نحواً من اثنتين وخمسين سنة ومثل هذا لا يكثر حدوثه .

الجزء الرابع

حياة الامير بعد اعتزاله الحكم ١٨٤٠ ـ ١٨٥٠

اقامة الامير بشير في اسطنبول

لم يذكر المؤرخون عنها الا القليل واليك ما توصلنا الى جمعه من الطرائف عن آخر مدة من حياة الامير :

لقد غادر الامير لبنان ولم يغادره ذكره قط ولم يفارق حبه قلبه فكان من ثم يدمي فؤاده ما كان يرد اليه من اخبار الفوضى التي عمت البلاد من بعده وسببت تغيير شأن الحكومة اكثر من مرة ولا سيما اخبار مساعي الدولة للقضاء على استقلال لبنان والحاقه بالولايات . وقد شعر الناس بالخسارة الفادحة التي لحقت بهم بفقدهم حاكماً صارماً عادلا عز ان يجدوا له مثيلا مما حمل فريقاً كبيراً من اهل البلاد ، حتى من اخصام الامير سابقاً ، ان يقدموا العرائض باعادته الى لبنان اذ لم يعرفوا غيره كفوءاً لارجاع الامن الى نصابه . وبينما كان الامير يتتبع كل هذه الحركات بهدوء كان رجال السياسة التركية يخادعونه بمواعيدهم العرقوبية وهو صابر على انقلاب الدهر عليه غير يائس او متذمر حتى انه لم يكن ليسمح لجلسائه ان يسيئوا التكلم بحضرته عن تركيا او

انكلترا . وقد قال له مرة احدهم ان الصحافة الفرنسية قائمة تطالب بحقوق لبنان فاجابه مورداً المثل المألوف : « الديك يصيح لكن لا يطيلع الضوء » . ومرة اخرى عبر احد زائريه عن آماله بمستقبل زاهر للامير فاجابه بلطف : « ها قد بلغت ساحل الحياة » ثم وجه انظاره الى شباك مفتوح امامه مرسلا النظرات الى القبة الزرقاء كأن لسان حاله يقول : « آمالي هي هنالك » ذلك لانه كان عارفاً بدهاء الاتراك واشتهارهم بخداع اكبر ساسة اوروبا . الا انهم لم يلبثوا ان صرحوا له بما كانوا يضمرون . واليك ما كتبه بهذا الشأن المطران دريان في كتابه « النبذة التاريخية صفحة ٤٢٧ من طبعة ١٩١٩ » :

« ان الامير بشير عندما ذهب الى الاستانة في اواخر سنة ١٨٤١ قد جاهر بنصرانيته غير هياب ولا طماع يؤثر مجدالله على مجد الناس .. وطلب بكل صراحة ان يتمم واجباته الدينية في كنيسة الارمن الكاثوليك في غلطة ،وكان ولاة الامور في الاستانة يغرونه على اعتناق الاسلام بارجاعه الى الحكم في جبل لبنان مع حق الميراث لذريته ، فرفض هذه الوعود بكل شجاعة ولم يغره شيء من مجد الدنيا بل جاهر كل المجاهرة بتمسكه بنصرانيته . واذ يأسوا منه لصلابة عوده مالوا الى اولاده بمثل هذا الاغراء فاسلم منهم الامير امين ظناً منه انه يقوى بعد ذلك على استرضاء والده العظيم الشأن عنه . وبعد ان جاهر باسلامه طلب مقابلة الامير الكبير ليعتذر له فابى مقابلته بكل مرارة نفس وقال قوله المأثور : « اذهبوا قولوا لهذا الغر انه لن يقابلني لا في هذه

الدنيا ولا في الآخرة » وبالواقع لم يعد يقابله قط حتى ادركته المنية قبل والده بمدة وجيزة » .

وقد اشار على الامير بشير بعضهم بالذهاب الى عاصمة الانكليز توسلا لاسترجاع ولايته فابى حرصاً على مذهبه وخشية من ان يغرى على البروتستانتية (عن كتاب لبنان ويوسف بك كرم للبشعلاني) .

ومن مظاهر تدينه في تلك الحقبة ان مرشد عائلته الخوري اسطفان حبيش كان يقيم له ذبيحة القداس كل يوم في غرفته فيحضره بخشوع . ومنها ايضاً انه كان يشاهد مراراً حاملا سبحته مصلياً . واما حاشيته فكان عددها يقل يوماً بعد يوم . وكاتبه بطرس كرامه تعين ترجاناً في قصر السلطان عبدالمجيد لانه كان يحسن اللغة التركية. والتزم الامير بامر الحكومة العثمانية ان يتنقل في البلاد فكان تارة في زعفران بول وتارة في بروسه في الاناضول وتارة في العاصمة نفسها لكنه اينما حل كان موضوع اعتبار كل الدول الاجنبية وسفرائها وكبار وزراء الدولة العثمانية .

ومما هو جدير بالذكر ان امير لبنان حتى الى آخر سنة من عمره كان عطفه « وحنينه ابداً لاول منزل » على ما جاء في شعر مشهور بدليل ما دونه في وصيته الاخيرة التي كتبها سنة واحدة قبل وفاته وفيها يأمر بوجوب صرف مبلغ من المال في سبيل البر وذلك في جبل لبنان وعلى ابناء لبنان وهذا هو النص :

« ثانياً ان تفرق (اي زوجته حسن جهان) في جبل لبنان

عشرين الف غرشاً الى الفقراء المساكين في الجبل المذكور » .

وقد نشرنا في اواخر هذا الفصل وصية الامير بحرفها وهي لعمري صورة ناصعة لاخلاقه كتبها في السنة السابقة لوفاته وبها استعد لملاقاة ربه كالرجل الحكيم وفيها يبان بجلاء تدينه واتساع ادراكه وبعد نظره .

وفاة الامير وسلالته

وكانت وفاته في كانون الاول سنة ١٨٥٠ في اسطنبول وعمره ٨٤ سنة حكم منها ٥٢ سنة ودفن باكرام في كنيسة الارمن الكاثوليك المسماة كنيسة المخلص في محلة (غلطة) من احياء اسطنبول . ووضع على ضريحه بلاطة حفر عليها تاريخه ومديحه باللغات الثلاث اللاتينية لغة اوروبا عامة ولغة الكنيسة الكاثوليكية للطقوس الغربية، والعربية لغة الامير ، والارمنية لغة مضيفيه واصدقائه الاوفياء .

وهذه هي الكتابة العربية ننقلها مثل اللتين تتبعان عن (المنارة) للمرسلين اللبنانيين في جونية عدد نيسان ١٩٥٠ من مقال للاستاذ الالمعي فؤاد افرام البستاني :

« قد كان صاحب هذا القبر ذا شرف

مدى الزمان رفيع غير منخفض

لاقى المنية في التسعين متشحاً

برد الفضائل من عمد ومن عرض

اولت ولايته لبنان طيب ثنا

وشاد بالعدل فيه غير منتقض

فهو الامير الشهابي البشير ومن

غير العلى لم يكن يرتاد من غرض

قضى فاظلمت الدنيـا مؤرخة

اما البشير شهـاب في الجنان يضي »

١٨٥٠

وهذه ترجمة الكتابة الارمنية :

« من هنا طار نحو الحياة الابدية الامير بشير ، رجل الجرأة ، امير لبنان ، المنطقة التي حكمها ستاً وخمسين سنة وهذه الارض تحفظ بقايا وجوده القصير .

ولد في ٦ ك ٢ سنة ١٧٦٧

توفي في ٣٠ كانون الاول سنة ١٨٥٠

وهذا تعريب الكتابة اللاتينية وفيها تمجيد وتعظيم جديران بصاحب الضريح :

العالي الشرف الامير بشير شهاب حكم بالعدل لبنان مدة ست وخمسين سنة محبوباً من الله والناس وهو يرقد في هذا المكان وقد خطفت روحه الى السماء في ٣٠ كانون الاول سنة ١٨٥٠ » .

وعلاوة على هذه الكتابات نقشت نقوش تمثل شمساً واكليلين .

ومن سلالته الذين هم الآن في قيد الحياة في لبنان عدد من الامراء الاماثل الشهابيين احفاد الاميرين قاسم وخليل والاميرة سعدى ابناء

الامير بشير ، اما ابنه الامير امين فمات بدون عقب ، ومن احفـاده ايضاً الامراء اللمعيون احفاد ابنته الاميرة سعود زوجة الامير خليل بشير احمد بللمع من برمانا والساكنون في انطلياس .

ولا ارى ختاماً لهذا الكتاب اجمل من الابيات التي وردت في رثاء رائع نظمه الشيخ ناصيف اليازجي في الامير سعيد بن خليل بن الامير بشير الذي توفي فجأة سنة ١٨٥٧ ودفن في مقبرة المدور بيروت:

اجلّ بني الكرام ابا وجدا	واكرم رهطهم عماً وخالا
كريم من كريم من كرام	بقوا في المجد اعمدة طوالا
سليل امير لبنـان المنادي	انا لبنان لما ملت مالا
اذا قلت الامير ولم تسمي	فلا يحتاج سامعك السؤالا
سألنا تحت معن عن نظير	له هل قام فيه قال لا لا
ستبكيه البلاد ومن عليها	الى ان تستعيض له مثالا
وتحصي الناس مافعلت يداه	ولكن بعد ان تحصى الرمالا

هذا هو الامير بشير درة الشهابيين فخر الموارنة واعظم رجال لبنان قاطبة .

كيف توفي الامير

فيما يلي نص ما جاء في وثيقة رستم باز اللبناني احد امناء سر الامير بشير عن كيفية موته ودفنه في اسطنبول نقلاً عن جريدة العمل في بيروت ، لسان حال الكتائب اللبنانية :

« ... بخاطرهم والامير موضوع باوضته التي مات بها وهي في دار الرجال فدخلت وقعدت مع الموجودين فيه فسألتهم كيف كان الامير ؟ قالوا : لم يكن جد عليه شيء بعدما فارقته، وفطر حسب عادته وشرب قهوي وغليون توتون ونام كما هي عادته ساعة ، وفاق وغسل وطلب قهوي فاخذ شاكر المملوك الفنجان ومد يده لاخذه فشخر والقى رأسه على المسند لوراء ، فاسرع الخوري اسطفان واوضته بجانب اوضة الامير فلم يجد فيه روح ابداً فارسل الخوري مكتوب الى البارون تاكه سفير دولة سردينيا يخبره ويطلب منه ارسال مصورين من الماهرين لعمل صورة الامير ، وهذا البارون تعلم في مدرسة عين ورقه حين كان الخوري يتعلم بها فكان يزور الامير بعض الاحيان ويعرف ماذا كان الامير بشير في لبنان . واخبر سفارة فرنسا والنمسا . وفي الساعة الواحدة ونصف حضروا اثنين مصورين تليان فمن بعد ما تعشوا طلبوا ان يروا الجثة ادخلوهم الى الاوضة الموجودة فيها واضاءوا اربع شمعات كبار ، فلما نظروها قال واحد من المصورين الذي اظنه خاف، واما الثاني اشجع قال : لنأخذ الرسم بقدر الامكان . واني اقول الحق ان النظر لهذه الجثة كان مرعب .

« قال المصورين : نريد انسان يقعد على مسند ويلقي ضهره على الحائط ، فجلست كما ارادوا واقعدوا الجثة مربع على طراحة والقوا ضهره الى صدري ، وكان فرو كبيرعال وطربوش اسطنبولي ولابس طقم جوخ وزنار شال هذا كان ملبوسه فبقوا من الساعة ٢ ونصف الى الساعة

٧ من الليل ونهار الاحد بكامله الى غروب الشمس حتى اكملوا اخذ الرسم تماماً ، ويوم الاثنين صار نوة عظيمة في البحر لم ير مثلها بالاخص في قاضي كوي لان موقعها على شاطىء بحر مرمرا . ولازم ارسال خادم الى اسطنبول بكتاب الى عالي باشا وزير الخارجية يعلموه بموت الامير ومحل دفنه وكتاب الى وكيل بطريرك خانا الارمن في غلطه وان الدفن في كنيسة البطريركية . ويستأجر بابور زغير ليحضر الى قاضي كوي لاخذ الجثة الى غلطه واذ لم يكن احد من الخدم يعرف يقضي هذه المهام طلبتني الست عندها فوجدت المرحومين والدنا وابن عمنا داود والسيد احمد دركي وناس كثيرين نساء ورجال من اهل المحل فرنج وارمن واروام . قالت الست والدمعة في عينها : يا رستم ليس عندنا من نعتمد عليه غيرك ، خذ هذه المكاتيب الى اسطنبول لعالي باشا وزير الخارجية والثانية الى حسون وكيل بطريرك خانه الارمن وبات الليلة هناك .

وصية الامير بشير الشهابي

نقلا عن النسخة الاصلية المأخوذة على الزنك والمدرجة في كتاب لبنان ويوسف بك كرم للخوري اسطفان البشعلاني في صفحة ١٢٠ :

الحمد لله الباري كل موجود الحاكم بالموت على كل مولود حمداً مقر بانعامه واليه مسلماً والى احكامه راضخاً وبعده اسأله العفو عما

مضى من الذنوب والسيئات وان يعاملني باحسانه ولطفه من بعد الممات معترفاً باني عبداً ضعيف ذميم ، واني قادماً على ملك قادر رحيم فلذلك قبل انتقالي بصحة جسمي وعقلي واختياري من هذه الديار الفانية الى الديار الباقية اقر معترفاً بان امانتي على امانة الكنيسة الرومانية المقدسة واؤمن بكلما تأمن به وتسلمه وارفض كلما ترفضه ، ثم انا بكمال صحتي اردت ان احرر هذا الصك الحاوي وصيتي هذه الاخيرة وان يصير العمل بموجبها بين ورثاي لاجل خلاص ذمتي ورفع كل المنازعات.
فاولا اريد ان لا يصير احتفال وقت دفني بل يكون الكاهن الموجود بخدمة داري حسب العوائد المسيحية .

ثانياً ـ من حيث طالت ايام غربتي ولم يبق عندي شيء من الموجودات لا ثابتة ولا منتقلة وقد انفقت كلما يوجد عندي من المال بهذه الغربة لان كمية المال الذي كان موجوداً عندي حين خروجي من الجبل هو ثلاثة آلاف كيس ومائتين كيس لا غير الدين .. وستمائة كيس وهذا جميعه قد صرفته لحين خروجي من الاستانة الى زعفران بول ، كما يبان ذلك واضحاً من دفتر حساباتي الشهرية المحفوظة عند المعلم بطرس كرامه ، ومن بعد ذلك الذي كان يتيسر معي كنت اسلمه الى الخوري اسطفان حبيش وكل شهر بشهره احاسبه وامضي له حسابه وهذه القوايم والتذاكر الشهرية هي محفوظة عند الخوري اسطفان المذكور تحت ختمي والمصاريف التي كانت تنفد مني زيادة قبل وبعد انعام الدولة العلية قد اخذتها بطريق الدين الشرعي من مداخيل ارزاق

زوجتي حسن جهان وبعت بعض من مصاغها واستلمت ما كان عندها من الدراهم النقدية فلذلك بموجب صك شرعي بمحكمة محروسة بروسه قد عوضت عليها ذلك والحالة هذه ومع كل هذا اريد من زوجتي المذكورة بان تخلص ذمتي بوفاء الديون التي تثبت عندي شرعاً ولربما تكون متوجبة على ذمتي الامر الذي لا علماً لي به .

ثالثاً - بان تفرق في جبل لبنان عشرين الف غرش حسنة قداسات عن نفسي وعشرة آلاف غرش حسنة قداسات عن الانفس المطهرية . وكذلك عشرة آلاف غرش الى الفقراء والمساكين بالجبل المذكور ، وهذا المبلغ الذي قدره اربعون الف غرش قد تعهدت لي بتفرقته كما ذكر لاجل خلاص ذمتي حيث لي اليد عليها .

رابعاً - قد اقمتها وكيلة عني في هذه الوصية وبكل شيء راجع لخلاص ذمتي ولا احد من ورثاي ولا من خلافهم له ان يتعارضها بشي لان هذه هي ارادتي وهي الوصية على اولادي اولادها سعدى وسعود وتربيهم بخوف الله تعالى وتجوزهم برضاهم وما لاحد له معها ولا معهم معارضة وهذا هو رضاي وخاطري .

خامساً - متروكاتي الثابتة ، وهي دار بتدين الذي انا معمرها من مالي وشهرتها كافية عن التسمية وهي دار الحرم وبرانيها الذي يتبعها هذه موقوفة بمحكمة بيروت باسم زوجتي المذكورة ومن بعدها للذرية ومرطبطة للبنين فهي مقيدة في سجل محكمة بيروت بحكم القاضي الذي كان والمفتي الشيخ عبد اللطيف ، واما الدار البرانية والميدان قد

اوهبتهم الى اولادي سعدى وسعود بموجب حجة شرعية بمحكمة محروسة بروسة ، وبقية المحلات الثابتة التي كانت تخصني فهذه جميعها محرر بها حجج شرعية الى زوجتي حسن جهان المذكورة ومتصرفة بهم ومعروفين باسمها من ذي قبل كما هو مشهور. وكذلك جميع الموجودات التي كانت عندي من ذهب وفضة ونحاس وخلافه من اثاث بيتنا من كلي وجزئي فهذا جميعه يخصها وملكها ومتصرفة به ايضاً وبيدها حجج شرعية بذلك منا فلا لاحد ان يتعارضها .

سادساً ـ وكيلانا في الجبل هم اعزازنا : خليل وملحم طرابلسي فاريد ان زوجتي المذكورة تجري معهم الحساب بالحق واذا كان باقياً لهم بذمتي شيء توفيهم اياه بما انهم متوكلين ايضاً على ارزاقها .

سابعاً ـ من حيث لم يزل باقي لي شركة خيول بالجبل وبعض اسلحة ما عدا ما هو محرر في الحجة المذكورة المسجلة في محكمة محروسة بروسه ومعروفين من وكيلانا المذكورين فأريد بان زوجتي حسن جهان المذكوره تطلب حسابهم وتوفي عن ذمتي من اصل الأربعين الف المذكورة الواجب تفرقتها كما ذكر اعلاه وقد فوضت امري لله ، وهذه هي وصيتي الاخيرة التي حررتها في مدينة بروسه ومعلم عليها اسمي بخط يدي ومختومة بختمي تحريراً في اليوم الاول من شهر تشرين الاول سنة ١٨٤٩ الف وثمانمائة وتسعة واربعين مسيحية المجاوب الى اليوم الخامس عشر من شهر ذي القعدة سنة ١٢٦٥ الف ومايتين وخمسة وستين من الهجرة صح صح صح .

المقر بما محرر في الوصية وحررت ذلك بيدي الفانية تحريراً

(الختم) بشير شهاب

اشهد على منطوق سعادته حرفياً (الختم) محرره

الخوري اسطفان حبيش

شهد بما فيه (الختم) عبدالله انطون مروجي

شهد بذلك (الختم) بطرس كرامه

نقل رفاة الامير من اسطنبول الى لبنان

(نقلا عن الهدى النيويوركية ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٤٧)

لم تكن فكرة عودة الامير التي حققها فخامة الرئيس الاول فكرة اليوم بل انها تعود بتاريخها الى اعوام خلت رددها وطالب بتحقيقها صفوة من اللبنانيين الغيارى على امجاد بلادهم وعلى كرامة رفاة حاكم ما زال مستوحشاً في بلاد غير بلاده وفي افياء غير افياء قصره .

الى ان كان العام الماضي حيث قررت الحكومة تلبية رغبة اللبنانيين فاوفدت حضرة الامير موريس شهاب مدير دائرة الآثار في لبنان الى تتميم هذه الغاية وتحقيقها والكشف عن بقايا الامير . فقام حضرته ودليله ما ترك المؤرخون ومعاصرو الامير من ادلة شاهدة على الكنيسة التي قام المدفن على جانبها والابيات التي نقشت على القبر

وهناك دليل له قيمته وهو طيب تراب ذلك القبر الذي دل عليه .

فكانت جولة الامير موفقة . فاهتدى الى المثوى الكريم بجانب كنيسة الارمن الكاثوليك في استنبول ، وقد اذاب مرور الزمن خشب التابوت فتحول الى تراب ناعم وبقيت منه قطعتان حقيرتان والى جانبهما مسامير التابوت . وقد حدث الامير موريس انه قد تعرف دون كبير عناء الى « جده » وقد ظهر وجهه من خلال الرفاة وانفه الكبير وخداه النافران ولوحظ ان هيكله العظمي لم يدب اليه البلا حتى اصابعه .

كما وجدوا في المدفن آثار من «غنبازه» الموشى بخيوط الذهب كما عثروا على قطعة من زناره الذهبي .

فوضعت هذه جميعها في صندوق الى يوم نقلها الذي تم باحتفال عظيم يوم ٢ ت ١ والتي كان عظيم صدفها ان يكون آل الامير اعني حفدته هم الذي اكتشفوا مثواه وواكبوا جثمانه من منفاه الى قصره . واعني بهم الجنرال الامير فؤاد شهاب قائد الجيش اللبناني ابن شقيق الامير . والامير موريس شهاب احد حفدته يواكبهما حضرة عزت بك خورشيد موفد فخامة الرئيس الاول .

وقد اوفد جلالة الملك فاروق بعثة عسكرية اشتركت في هذا التكريم وحملت اكليلا كتب عليه : من حفيد محمد علي الى حليفه الامير بشير الشهابي .

كيف استقبلت رفاة الامير

نقلا عن جريدة المستقبل الطرابلسية لصاحبتها ورئيسة تحريرها
السيدة الفيرا لطوف في ١٥ ت ١ سنة ١٩٤٧

استقبل لبنان حكومة وشعباً رفاة الامير العظيم في يومه المشهود بعد مرور مئة سنة على وفاته وكان ذلك يوم الخميس في ٢ تشرين الجاري ، حيث عطلت الدوائر الرسمية عن العمل وخفقت الاعلام على الدور والمؤسسات وزحفت الى بيروت الجماهير الغفيرة من الانحاء اللبنانية كافة وانتظمت في الشوارع المؤدية الى المرفأ فرق الجيش والدرك والشرطة ، وترأس حفلة الاستقبال فخامة رئيس الجمهورية يحيط به رئيس مجلس الوزراء ورئيس مجلس النواب والوزراء والنواب والهيئات الرسمية واعضاء الاسرة الشهابية وسفراء وقناصل الدول الاجنبية ورؤساء الدوائر والمؤسسات والمنظمات والنقابات والجمعيات ورجال الدين واصحاب الصحف . وتولت مفرزة من الجيش نقل الرفاة على عربة وحياها الجيش بالتحية العسكرية والموسيقى بنشيد الموت ثم بالنشيد اللبناني . ومشى الموكب على اتم ترتيب الى ساحة الشهداء وامام النصب التذكاري القى رئيس مجلس الوزراء كلمة الحكومة ثم تابع الموكب سيره الى قصر بيت الدين حيث استقبلته جماهير الناحية بمظاهرة الاجلال والتكريم . وفي ساحة القصر الشهابي استقبلته الموسيقى بالنشيد اللبناني والقى فخامة رئيس الجمهورية كلمة

الامة ، وبعد ان احتفل بالصلاة على الرفاة اودع نعشها في الضريح الفخم الى جانب زوجته فودعته المدفعية بـ ٢١ طلقة وشيعه سيادة المطران بستاني بتأبين بليغ انصرفت على اثره الوفود مودعة فخامة الرئيس واعضاء الجامعة الشهابية . وقد اسهبت الصحف في وصف هذا الاحتفال وخصت اعمدتها البارزة بسيرة حياة الامير الشهابي المليئة بالعبر والمفاخر والامجاد .

نخبة من قصائد نظمت لمناسبة نقل رفاة الامير الى لبنان

قصيدة للشاعر الزجلي الشهير محمود الزغبي الملقب (بفتى الجبل) في يوتيكا نيويورك

يا مزين التاريخ بمباديك

صوت الوطن يا مير ينـاديك	وبدنا حقوقك بالوفا نوفيك
عـلوّاه لو بتفتح عيونك	بتعرف جبل لبنان مش ناسيك
عـلوّاه لو بتفتح عيونك	تتشوفنـا منقرّ بديونك
لبنـان طول الدهر ممنونك	بايام حكمك عاش بالخيرات

ومد غـله يشتري المتليك

بايام حكمك عاش بالخيرات	والامن مشى الديب حد الشاة
هيهـات مثلك يلتقى هيهات	يا امير بالعدل والانصاف

بعد ما شفنا حدا يساويك

يا أمير بالعدل والانصاف　　　مثلك بعد لبنـانـنا ما شاف
ما كنت تفرق اقويا من ضعاف　　　وحق الفقير مثل الغني عالقد
ولبنان كان يشوف حالو فيك

وحق الفقير مثل الغني عالقد　　　وكلمتك ما في عليها رد
صنت الوطن في عزم ماضي الحد　　　ومن هيك حتى بعدنا بلبنان
بيّ العدل والحق منسميك

ومن هيك حتى بعدنا بلبنان　　　منتذكرك عاطيلة الازمان
في حكمتك عيبت عا سليمان　　　شراعي الامور ديرت دفتها
وتعرف لوين الهوى موديك

شراعي الامور ديرت دفتها　　　وعينك على لبنان لافتها
وسطوتك يا مير خافتهـا　　　باقي الدول تاطابقت عليك
حتى من بلاد الارز تنفيك

باقي الدول تاطابقت عليك　　　ولوكان موجود عدل ماصار هيك
هونيك مت وغمضوا عينيك　　　وذكرك عاطول الدهر مابيموت
يا مزين التـاريخ بمباديك

يوتيكا - نيويورك　　　محمود الزغبي
« فتى الجبل »

مطلع الامير

لفقيد الوطن والشعر رشيد بك نخله

وين الامير ووين سراياتوا   وصهل خيلو وخفق راياتو
استوحش على البوسفور بوسعدا   قم يا جبل تنجيب عظماتو
استوحش على البوسفور بوسعدا   وبعدا البلاد بتبايعو بعدا
وتذكر صفاها وعزها وسعدا   وهيبتو الكانت ملاذ العصر
وحواجبو الغضه وعبساتو

وهيبتو الكانت ملاذ العصر   وحواجبو اليوقف عليها النسر
وصرخات عبيدالقصر عندالعصر   العيش لامين عاش يا جوعان
وعكامتو تشرع كراراتو

العيش لا مين عاش يا جوعان   ومدوم خمس تالاف بالميدان
مماليك ورجالات جبل لبنان   تزدحم حول « قاعة العامود »
وبشيرنا مفرود في ذاتو

تزدحم حول « قاعة العامود »   يعجعج حداها ويضبح البارود
والبلكباشية قيام وقعود   بسيوف عريضه تلتطم بسيوف
وترقب عاهاك الكشك طلاتو

بسيوف عريضه تلتطم بسيوف   تيطل بو سعدا الامير ويشوف
بكرك سمور بكدلية صوف   وخنجرو في وسط زنارو
وعاشمال تدلح طبنجاتو

وخنجرو في وسط زنارو ترجف عربستان لخبارو
منجار كل من امنو وجارو ما في كبير الا باسمو كبير
ولا ظل الا بظل فياتو

ما في كبير الا باسمو كبير ولا مير في هالشرق الا « المير »
لليوم بس تصيح باسم بشير بتكبر وبتعتز فيك نفسك
وبتقشعك حالك خيالاتو

بتكبر وبتعتز فيك نفسك وحاضرك يبكي على امسك
ويا ميرنا لو بالارز رمسك تا كان محج المجد والتاريخ
وراية جبلنا ورمز نخواتو

تا كان محج المجد والتاريخ رفرفو عالي على المريخ
وياما قرينا للعلى تواريخ تاريخ بو سعدا عليها فاق
وكبرت على الراوي رواياتو

تاريخ بوسعدى عليها فاق طاف العواصم طبق الآفاق
وين القنا وين اللوا الخفاق وين السيوف التطلب استقلال
مات الامير وكلهم ماتوا

ابيات مقتطفة

« من رواية زجلية لبنانية للاستاذ بولس سلامه »

وين بو سعدى الامير بشير هيبتو لا عنتر ولا الزير

لحيه عريضه قد عرض الشير	من عبستو كان الشرار يطير
لما على اسطنبول راح المير	مشى الغنم والديب تحت النير
وكانت الحرمة وحيده تسير	وصيت الكبير وين ماشلحتو كبير

وبخطره متل الامير يصير

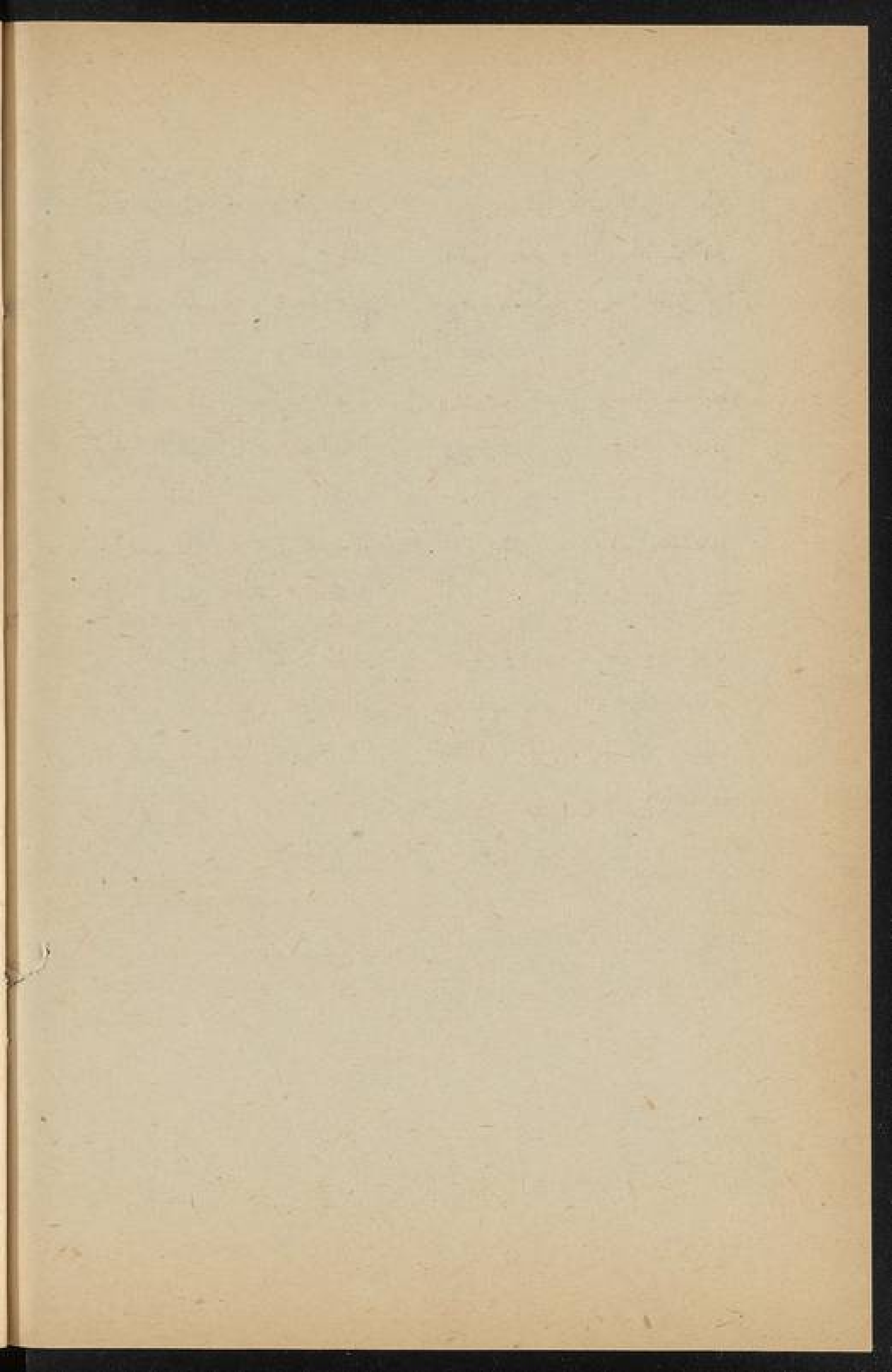
لبنان كان معتز بزمانو	رن سيفو ومد سلطانو
فوق الكواكب مرتفع شانو	ويرتجف من صهلة حصانو
حتى انصبغ بالدم ميدانو	وعض حد السيف بسنانو
والرصاص يمزق ردانو	ابن عشره ، وطيلق عنانو
دك الحصار وهد اركانو	يا امير البر والبرين

والعز راتع تحت اكنافو	ومتل وجهو الناس ما شافو
وملعب الخيال اكتافو	والقلب يغمى ان حرك شفافو
منو السباع تهيبوا وخافوا (١)	وقوم نظام الحكم سيافو
بوادي القرن تبرم باطرافو	وابعد من المريخ اهدافو

وتنفتح عا متل كسمو العين

---

(١) يروى انه لما نفي الامير الى الاستانة دخل ذات يوم حديقة الحيوانات وكان في احد الاقفاص اسد ولبوة انتصبا واقفين لدى دخوله ولم يقفا قبله لاحد .



جدول باسماء الحكام من العيلة الشهابية

اسم الامير	سنة ولايته	تاريخ استقالته	مدة الحكم
الامير بشير بن الامير حسن	١٦٩٧	١٧٠٦	٩
الامير حيدر موسى	١٧٠٦	١٧٣٢	٢٦
ابنه الامير ملحم	١٧٣٢	١٧٥٤	٢٢
اخواه منصور واحمد	١٧٥٤	١٧٦٢	٨
الامير منصور وحده	١٧٦٢	١٧٧٠	٨
الامير يوسف ملحم	١٧٧٠	١٧٨٨	١٨
الامير بشير قاسم الكبير	١٧٨٨	١٨٤٠	٥٢
الامير بشير الثالث	١٨٤٠	١٨٤١	١
			١٤٤

الجزء الثالث

الجزء الرابع



اصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٤	٨	وليآ	واليآ
٣٧	٧	والى	والي
٧٣	٧	والقلائل	والقلاقل
٤٨	٦	حزراً	حذراً
٥٣	٥	١٧٠٧	١٨٠٧
٧٠	٤	اسعد	سعد
٨٠	٦	وسل	وسلب
٨١	٧	الذين	الذي
٩٥	١٨	تاليفهم	تآليفهم
٩٦	٦	نجم	نجيم
٩٧	٢	المندي	الجندي
٩٧	٦	بقامه	معامه
٩٨	٥	ليخلفونك	ليخلفوك
١٠٣	٣	عسر	عسراً
١٠٧	١٠	يعجزن	يعجزون
١١٣	١٦	الاترك	الاتراك
١٢٠	٨	جميع	جميع

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٢٣	١	حلة	حالة
١٤٧	٣	اما	امام
١٤٧	١٤	بوتران	بوتران
١٥٠	١	بين الدين	بيت الدين
١٥٨	٩	سليمان	سلمان
١٣٠	١٢	والقلائل	والقلاقل
١٩٤	٣	والحيال	والجبال
١٧٣	١١	ثباتة	ثابتة
١٧٨	١	استقبلت	استقبل
١٧٨	١	رفاة	رفات
١٨١	٣	سرياتو	سراياتو
١٧٦	٥	مروجي	بردعجي
١٧٦	٧	رفاة	رفات



